المكتبة الثقافية

٩١

الدكتور محمد عبد العزيز مرزوق

١٥ أغسطس ١٩٦٣

وزارة

الثقافة والإرشاد القومي

المؤسسة

المصرية

العامة

للتأليف والترجمة

والطباعة والنشر

المكتبة الثقافية

٩١

قصر الحمراء

الدكتور محمد عبد العزيز مرزوق

وزارة
الثقافة والإرشاد القومي
المؤسسة
المصرية
العامة
للتأليف والترجمة
والطباعة والنشر

١٥ أغسطس ١٩٦٣



١٨ شارع سوق التوفيقية بالقاهرة

ت ٥٥٠٣٢ — ٧٧٧٤١

بسم الله الرحمن الرحيم

قصرُ الحمراء فى غرناطة عام ١٩٣٥ يوم كنت أدرس الآثار الإسلامية فى جامعة القاهرة ، وزرته عام ١٩٥١ يوم كنت أدرّس هـذه الآثار للطلبـة فى جامعة الإسكندرية ، وفى الصفحات التـالية يلتقى جهـد الطالب بنظرة الأستاذ .

على أنى فى الواقع لم أقصد بهـذا الكتيب أن يكون بحثاً جامعاً فى الآثار والفنون الإسلامية بقدر ما قصدت أن يكون مزاجاً من الأسطورة والتاريخ ، ومن الشعر والزخرف الجميل .

والله أسأل أن يجد فيه القارئ من اللذة الروحية ماوجدت يوم نعمت بزيارة هـذا القصر ، ويوم جلست أسطر هذه الكلمات .

وأحب قبل أن أضع القلم أن أشير إلى أنى قد استفدت بكل من سبقنى إلى الكتابة فى هذا الميدان وهم كثير ، منهم العربى ، والإسبانى ، والفرنسى ، والألمانى ، ويضيق المقام هنا عن إثبات هذه المراجع جميعا ، ولذلك أكتفى بذكر ثلاثة منها تفتح الباب

على مراجع كثيرة لمن شاء أن يزداد فى هذا المجـال علماً وهى بحسب تاريخ صدورها :

1. Kühnel, E., Maurische Kunst, Berlin, 1924.
2. Marçais, G., Manuel d'art musulman, Vol. I, II, Paris, 1927.
3. Torres Balbas, L., ARS Hispaniae, Vol. IV, Madrid, 1949.

دكتور
محمد عبد العزيز مرزوق

مصر الجديدة — يناير سنة ١٩٦٢



مقدمـــة تاريخيـــة

قصر الحمراء أحد القصور الكثيرة التى شيدها العرب فى بلاد الأندلس عندما كانوا يعيشون فى تلك البلاد فى العصور الوسطى ، ولا يتسنى لنا تقدير قيمته وبالتالى قيمة ما كان للعرب من فضل على الحضارة الإنسانية فى تلك الحقبة من الزمن إلا إذا عرفنا فى شىء من الإيجاز تاريخ العرب فى تلك البلاد .

ولقد فتح العرب بلاد الأندلس بعد أن دانت لهم مصر و بلاد المغرب، فما كاد الأمر يستقر لعمرو بن العاص فى مصر حتى دفعته همته إلى السير غربا لكى يقضى على سلطان الروم فى بلاد المغرب كما قضى على سلطانهم فى مصر حتى يؤمن بذلك حدود ذلك القطر الغنى الذى فتحه الله عليه . ومن بلاد المغرب غزا العرب شبه الجزيرة الواقعة إلى الشمال من المغرب الأقصى وأطلقوا عليها اسم الأندلس .

وكلمة الأندلس كانت تنصرف فى أول الأمر إلى جميع البلاد التى فتحها العرب فى شبه الجزيرة ، ثم صار مدلولها يتقلص بتقلص نفوذهم فى البلاد ، وهى الآن تطلق على الجزء الجنوبى من إسبانيا .

وقصة غزو العرب لإسبانيا — وهو الاسم الذى عرفت به شبه الجزيرة عند الرومان — تتلخص فى أنهم بعد أن استقر لهم الأمر فى بلاد المغرب ، ودانت لهم بأكملها ، بقيت مدينة واحدة خارجة عن سلطانهم وتابعة لإسبانيا هى مدينة «سبتة» ، ولم يكن أمير تلك المدينة على وفاق مع ملك بلاده ، وعندما استحكم العداء بينهما ، واشتدت الجفوة ، اتجه أمير « سبتة » بدافع من كراهيته إلى تحريض العرب على غزو إسبانيا وإغرائهم بذلك . واستجاب موسى بن نصير حاكم بلاد المغرب حينئذ لهذا الإغراء ، واستأذن الخليفة الأموى فى دمشق ، الوليد ابن عبد الملك ، فى غزو تلك البلاد فأذن له ، وتم الفتح على يدى طارق بن زياد الذى خلع اسمه على الجبل الرابض إلى الجنوب من شبه الجزيرة فأصبح يعرف منذ ذلك الحين بجبل طارق . وانضم موسى بن نصير إلى قائده طارق لـكى يشاركه شرف الجهاد ، ويقاسمه غنائم الغزو ، ثم ينعم وإياه بعد ذلك بحلاوة النصر . وتعاون الوالى والقائد على إتمام فتح البلاد ، وبلغا أقصى حدودها الشمالية عند جبال البرانس حيث لجأ أشراف الإسبان والقوط ، واستقروا هناك مترقبين الفرصة لاستعادة بلادهم .

وحُكمت الأندلس من دمشق تسعاً وثلاثين عاما اختلف عليها فيها من الولاة عــدد كبير ، ونجح العرب فى خلالها فى التوغل فى قلب فرنسا حتى وصلوا مدينة «توربواتيه» ولـكنهم هزموا هناك أمام جيوش الفرنجة فى واقعة بلاط الشهداء التى نظر إليها المؤرخون الأجانب من زاويتين مختلفتين : فريق منهم رأى أن هزيمة العرب هناك قد حالت دون انتشار الإسلام فى أرجاء أوربا ، ومكنت للمسيحية فيها ، وحمتها من هذا الدين الجديد الذى وجد سبيله إلى نفوس الملايين من المسيحيين فى البلاد الأخرى . وفريق آخر رأى أن هزيمة العرب فى هذه الواقعة قد أخرت أوربا فى ميدان الحضارة سنين عدداً ، وهذا لعمرو الحق هو الواقع ، فلو أن العرب قد نجحوا فى التوغل داخل أوربا لاستيقظت من سباتها ، وبدأت عصر نهضتها قبل التاريخ الذى قامت فيه هذه النهضة بعدة قرون .

* * *

وسقطت الخلافة الأموية فى دمشق سنة ٧٥٠ م ، ونجا من فتك العباسيين الأمير عبد الرحمن بن معاوية بن هشام الذى استطاع أن يفر إلى بلاد المغرب ، ثم عبر منها إلى الأندلس ودخلها وأسس بها إمارة فى مدينة قرطبة Cordova ظلت تقوى على مر الزمن حتى أخضعت لسلطانها الأندلس بأكمله ،

وهكذا أصبحت الأندلس لبني أمية الذين كانوا يخطبون لأنفسهم بالإمارة أولا ثم تجرأوا فنادوا بأنفسهم خلفاء للمسلمين. وقد بلغت الأندلس على عهدهم ذروة التقدم ، وارتفع مستوى الحياة إلى درجة لم تعرفها أوربا المعاصرة لهم .

ولكن سرعان مادب الضعف فى جسم الخلافة الأموية الأندلسية ، وانسلخ حكام الأقاليم عنها واحداً بعد الآخر ، واستقل كل حاكم عربى بما فى يده من بلاد ، وقامت عدة دويلات على رأسها ملوك صغار فيما يملكون ولكنهم كبار فى حضارتهم، يطلق عليهم المؤرخون عادة اسم «ملوك الطوائف» .

* * *

ويعتبر عصر هؤلاء الملوك من أزهى عصور الحضارة الإسلامية عامة على الرغم من أنه كان عصر انحلال سياسى ، ذلك أن كل عاصمة من عواصم تلك الدويلات حرصت أشد الحرص على أن تنافس قرطبة فى عنايتها بالعلوم والفنون والسمو بالحياة الاجتماعية.

ولقد اختلف هؤلاء الملوك قوة وضعفا ولكنهم اتفقوا فى أمر واحد هو الطمع الذى سيطر على نفوسهم ، ودفع بقويهم إلى البطش بضعيفهم كما دفع بضعيفهم إلى التحالف مع جار قوى ، عربيا كان هذا الجار أو إسبانيا ، حرصاً على ما ملكته يداه.

وضعف نفوذ العرب فى الأندلس نتيجة لهذا الانقسام

السياسى ، بينما تمهد السبيل أمام أشراف الإسبان والقوط الرابضين فى الشمال لـكى يتعاونوا على القيام فى وجه العرب لاسترداد بلادهم .

* * *

وقد كان طبيعيا أن يستعين عرب الأندلس بإخوانهم فى الجنس والدين ، وكان أقرب العرب إليهم أمراء بلاد المغرب حيث قامت فى ذلك الوقت دولتان فتيتان كان لهما شأن يذكر لا فى تاريخ المغرب والأندلس فحسب بل فى التاريخ العربى عامة — هما دولة المرابطين التى قامت فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر (١٠٥٦ — ١١٤٨ م) ، ودولة الموحدين التى قامت فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر (١١٣٠ — ١٢٦٩ م) . وقد وضع نواة كل منهما داعية دينى التف حوله خلق كثيرون آمنوا بدعوته وتحمسوا لها ، ودفعهم حماسهم إلى الغزو فكونوا دولة كبيرة كان مسرحها المغرب والأندلس . وقد تسرب الضعف إلى كل من الدولتين عندما فتر حماس المؤمنين بدعوتهما ، وضعفت همم الزعماء فيهما ، وانصرفوا إلى الترف ، وانغمسوا فيه فانهارت كل منهما بمثل السرعة التى نهضت بها .

أما المرابطون فقد كانوا فى أصلهم من البدو الرحل الذين ينتمون إلى قبيلة صنهاجة ، وكانت منازلهم الأولى فيما وراء

الصحراء الكبرى حتى أطراف السودان ونهر النيجر ، وقد استقر بهم المقام فى غرب الصحراء قرب المحيط الأطلسى ـ أو البحر المحيط كما كانت تسميه العرب . وقد عرفوا بالملثمين لأنهم كانوا يغطون وجوههم إلى ما دون عيونهم باللثام ، ولعل هذه العادة وهذه التسمية راجعة إلى اشتراك نسائهم معهم فى القتال ، وخروجهن محجبات حتى يحسبن فى عداد الرجال .
وعندما فتح العرب بلاد المغرب دخلوا فى الإسلام ، وقد ازدادوا فهما لهذا الدين وتفقها لأصوله على يدى زعيمهم عبد الله بن ياسين الذى سماهم بالمرابطين أخذا من قوله تعالى فى القرآن الكريم فى سورة آل عمران : « يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون » ، ذلك أن المرابطة الوارد ذكرها فى الآية معناها ارتباط الخيل بإزاء العدو ، والمرابط هو الذى يلازم الرباط ، والرباط فى العمارة العربية هو البناء الذى يتخذه العرب مقراً لأولئك الذين وهبوا أنفسهم للدفاع عن بلادهم ، والجهاد فى سبيل الله ضد أعداء الإسلام ، وقد تغير المفهوم من الرباط بتغير الأحوال فى الامبراطورية العربية ، فعندما ضعفت الروح الحربية فى النفوس أصبح المقصود بالرباط هو البناء الذى يقيم فيه أولئك الذين

وهبوا أنفسهم لعبادة الله وكأنهم أرادوا بالتفرغ للعبادة وتكريس حياتهم لها ، أن يستجيب الله لدعائهم فيحميهم من الأعداء ، ويصد البلاء عن البلاد . وقد عرف زعيم المرابطين ومؤسس دولتهم بالزهد فى زخرف الحياة الدنيا ، وكان خطيباً قوى التأثير فى الناس ، واسع العلم فى الدين ، ومما يؤثر عنه أنه كانت له طريقة خاصة فى تهذيب نفوس مريديه وتطهيرها ، ذلك أنه كان يأمر بجلد من جاءه راغباً فى الانخراط فى سلك دعوته مائة سوط كسرًا لحدة نفسه ، وإثباتاً لأنه باع هذه النفس لله ولم يعد له من الأمر شيء .

وقد نجح ابن ياسين فعلا فى أن يوقظ الحماس الدينى فى نفوس أتباعه فخرجوا معه يفتحون البلاد ،ونجحوا فى الاستيلاء على المغرب ، وخفوا لنجدة إخوانهم من عرب الأندلس وانتصروا هناك على الإسبان انتصاراً باهراً فى واقعة الزلاقة المشهورة ، ولكن بمضى الوقت، وقيام أمراء ليست لهم قوة خلق ابن ياسين ، أو إخلاص يوسف بن تاشفين(أشهر المرابطين بعد ابن ياسين) ، تسرب الضعف إلى هذه الجماعة ، وانغمس رجالها فى الترف ، وانتشر الفساد بينهم وذاع المنكر ، الأمر الذى مهد السبيل لقيام طائفة الموحدين التى جعلت هدفها القضاء على

حكومة المرابطين حتى لا يصاب الإسلام فى الصميم كما ذهب إلى ذلك زعيمهم « ابن تومرت » .

* * *

وقد نشأ ابن تومرت فى قبيلة مصمودة البربرية ، وهو وقومه من سكان الجبال ، كانو يسكنون جبل السوس الواقع فى الجنوب الغربى من مراكش الحالية . وقد درس علوم عصره فى المغرب والأندلس ، وسافر إلى مصر والشام والعراق ليزداد تفقها فى الدين . وقد كان ورعاً ، متقشفاً ، ينكر على الناس مخالفة الشرع ، ويتحمل فى سبيل محاربة المنكر الأذى وهو راض النفس قرير العين : حارب المنكر فى مكة فى موسم الحج وأوذى فى ذلك من الناس ، وحاربه فى مصر وحض الناس على العودة إلى الكتاب والسنة فطرد من مصر ، وحاربه فى بلاد المغرب فكان يجلس فى الطرقات يزيل المنكرات ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، وكثيراً ما كان يتمثل بقول المتنبى :

إذا غامرت فى شرف مروم ... فلا تقنع بما دون النجوم
فطعم الموت فى أمر حقير ... كطعم الموت فى أمر عظيم

وقد برز ابن تومرت على مسرح التاريخ بعد حادثة وقعت له فى بغداد وهو يطلب العلم فيها ، ذلك أنه قابل هناك حجة الإسلام الإمام أبو حامد الغزالى (١٠٥٨ — ١١١١ م) الذى

سأله كيف استقبل الناس فى المغرب كتابه «إحياء علوم الدين»، فأجابه : « إن معاهد قرطبة ومراكش وفاس والقيروان قد صادرته ، وإن حكومة المرابطين قد أمرت بحرقه » .

وقد كان لهذا الرد أثر سيء فى نفس الغزالى ، فدعا الله أن يحرق ملك المرابطين كما أحرقوا كتابه ، وهنا قال له ابن تومرت : « أيها الإمام ، ادع الله أن يجعل ذلك على يدى» فقال الغزالى « اللهم اجعله على يدى هذا الرجل » .

* * *

وقبل أن نمضى فى عرض ما بقى لنا من حياة ابن تومرت ينبغى أن نقف عند هذه الحادثة قليلا ففيها عظة لنا وعبرة ، ذلك أن الإمام الغزالى فى كتابه سالف الذكر قد بين فضل الإسلام على الحضارة الإنسانية ، وأثره فى تكوين الإنسان الكامل ، وعنى فيه أكثر ما عنى بالأخلاق ، وحمل فيه على الفقهاء المتزمتين لأنهم وجهوا اهتمامهم إلى تافه الأمور وتركوا جليلها : تركوا بيان الأخلاق الإسلامية الصحيحة ، وأهملوا توجيه النظر إلى أهميتها ،وعرضها على الناس عرضاً محبباً يجذب الإنسان إليها ويفتح صدره للإقبال على الله ، وقد اقتصرت دراسة هؤلاء الفقهاء على مسائل فرعية قلما يكون لها أثر فى تكوين خلق الأمة العربية .

ولقد كان هجومه هذا على رجال الفقه داعياً إلى زلزلة مكانتهم فى

قلوب الجماهير فقد كان يقول : إن الفقيه الحق هو العبد العامل بعلمه لا العالم البارع فى المجادلات والتخريجات ، الأمر الذى أحنق عليه فقهاء المغرب. وهكذا أثار هذا الكتاب عند انتشاره فى الأندلس عاصفة من الاستياء فأصدر قاضى قرطبة وزملاؤه فتوى اتهموا فيها الغزالى بالابتداع والمرطقة ، وأمر بإحراق كتابه فى قرطبة على مشهد من جماهير الشعب ، وفرضت عقوبة الإعدام على كل من يقرأ هذا الكتاب فى طول مملكة المرابطين وعرضها .

* * *

ونعود إلى ابن تومرت ، فقد أخذ يشدد النكير على مثالب عصره ، والتف حوله خلق كثيرون ، ونجحت دعوته نجاحا يكاد يكون منعدم النظير ، ومما ساعده على إحراز هذا الفوز سريعا ، تقشف واضح فى حياته ،وورع ظاهر فى محياه ،وبلاغة وفصاحة فى بيانه تخلب لب السامعين . ومما يروى عنه أنه حضر ذات يوم إلى مراكش عاصمة المرابطين ، وذهب إلى المسجد الجامع ليؤدى صلاة الجمعة ، وجلس فى المكان المخصص للسلطان ، ولما طلب إليه التنحى عن مكانه هذا لم يستجب إلى هذه الدعوة ، وقرأ الآية الكريمة : « وأن المساجد لله فلا تدع مع الله أحداً » ، ثم أخذ يفسرها والجمهور مقبل عليه منصت

له ، حتى حضر السلطان ،ونهض الجميع لتحيته إلا هو،ولما انتهت الصلاة ، تقدم إليه مخاطبا «غيّر المنكر، وارفع الظلم من بلادك فأنت المسئول عن رعيتك أمام الله» . وقد أمن الحاضرون على كلامه هذا ، أما السلطان فلم يجب بشيء ولكنه سأله بعد هنيهة عن حاجته فقال له : « لست بطالب دنيا ، ولا حاجة لى بها غير أنى آمر بالمعروف ، وأنهى عن المنكر ».

ولقد تنبه المرابطون لهذا الرجل الذى أصبح يهدد الأمن والنظام بما يبثه فى نفوس مستمعيه من روح الثورة على الترف الذى استشرى أمره فى الأمة . ورصدت الحكومة عليه العيون ولكنه كان يظفر بالنجاة فى كل محاولة يراد منها القبض عليه إما بالفرار أو الاختفاء ، وكلما اشتدت مطاردة الحكومة له كلما زادت دعوته نجاحا . ولجا آخر الأمر إلى قرية صغيرة فى جبال السوس تدعى «تمال» وكان يهرع إليه الناس فيها للاستماع إلى موعظته ، والاهتداء بهديه ، وازداد على مر الزمن غلوا ، وانتشى بنشوة السلطان ، فأعلن للناس أنه المهدى المنتظر ، وأنه سوف يملأ الأرض عدلا ونوراً ،وأعلن أن المرابطين قد حادوا عن الطريق السوى ويجب محاربتهم ، وينبغى أن تقوم مكانهم دولة إسلامية حقا ، توحد الله توحيدا صحيحا ، ومن هنا جاءت

تسمية أتباعه بالموحدين ، أى الذين اتحدوا على الإيمان بوحدة الله . وقد كان طبيعيا أن تقع الحرب بينه وبين المرابطين ، وكان طبيعيا كذلك أن ينتصر برجاله الممتلئين حماسة على المرابطين الذين نخر الضعف عظامهم .

* * *

وإذا نحن عقدنا بين المرابطين والموحدين مقارنة من حيث أثر كل منهم فى تاريخ الحضارة العربية لوجدنا أن أثر الموحدين أعمق وأوضح ، ذلك أنهم كانوا أكثر ثقافة من المرابطين بحكم كونهم من سكان الجبال بينما كان المرابطون من العرب الرحل الذين كانوا يتنقلون من مكان إلى مكان سعيا وراء الرزق ، وكانت مقومات حضارتهم أقل بكثير من مقومات الحضارة العربية فى الأندلس ، لذلك نلاحظ أن حضارة الأندلس قد طغت عليهم حتى أصبحوا فى حياتهم الجديدة أقرب إلى أهل الأندلس منهم إلى أهل مراكش . وأغلب الظن أن الذوق الفنى قد هبط فى عصرهم هبوطا نلمسه فى الشعر الذى اتجه الميل فيه إلى كل ما هو شعبى ، وطغت عليه روح يعوزها الوقار والحشمة ، ومن يدرى فلعل هذه الحركة الشعبية فى الشعر كانت بمثابة ثورة على القوالب المتكلفة التى كان الارستقراطيون المترفون من أهل الأندلس يلتزمونها ويحرصون عليها ، على

أننا لا ينبغى أن ننسى هنا أن المرابطين قد عرّفوا أهل الأندلس بالجمل الذى بعث الرعب فى نفوسهم عندما شاهدوه لأول مرة ، وأن من الشخصيات المشهورة التى ظهرت فى عصرهم ابن زهر الطبيب ، والبكرى والأدريسى الجغرافيين . وفى الحق أن ضم المرابطين للأندلس لم يقطع سلسلة التقدم الحضارى لتلك البلاد بل استمرت عجلة التطور تدور بنفس السرعة التى كانت تدور بها من قبل ، وقد دهش المرابطون أيما دهشة عندما رأوا هذه الحضارة المادية الراقية ، وكانت لها فى نفوسهم نشوة فانغمسوا فيها ،ونعموا فى ظلالها الوارفة، وأقبلوا على كل مظاهرها إقبالا شديدا ، وأخذوا يخرجون من بداوتهم ،ويتهذبون فى ذوقهم ، وحملوا معهم إلى بلاد المغرب مقومات هذه الحضارة ونشروها هناك .

أما الموحدون فكان دورهم على مسرح التاريخ أطول زمنا وأبعد حدا ، إذ شمل ملكهم منطقة واسعة امتدت شرقا حتى ليبيا وغربا حتى المحيط ، وجنوبا حتى الصحراء ، وشمالا حتى البحر الوسيط وفيما وراء المضيق الأندلسى ، وقد نهلوا بدورهم من معين حضارة الأندلس ، وقد تمتعت البلاد فى عهدهم بالهدوء ، وتوفر فيها الجو المناسب لإقامة المنشآت المعمارية العظيمة التى

ذهب معظمها ولم يبق إلا أقلها ، ولعل من أشهر ما وصل إلينا منها مئذنة المسجد الجامع فى أشبيلية التى تعرف اليوم عند الإسبان باسم « الجيرالدا » ، لأنهم بعد أن حولوا هذا المسجد إلى كنيسة عظيمة — عقب استرداد بلادهم من العرب — غيروا قمة المئذنة ووضعوا فوقها تمثالا به شارة تعين اتجاه الرياح ، وتدور معها حيث دارت ، ومن هنا جاءت هذه التسمية الإسبانية التى تعنى الدوّارة .

ولم تزدهر فنون العمارة والزخرفة وحدها فى هذا العصر بل ازدهر كذلك فن الشعر وتجلت فيه الرقة والطرافة ، كما وصلت الثقافة إلى ذورتها العليا فظهر رجال العلم والأدب ، نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر ابن سهل الشاعر ، وابن البيطار العالم فى النبات ، وابن رشد الفيلسوف ، وابن عربى من أئمة الصوفية ، وابن جبير الرحالة المعروف .

ولقد نجح الموحدون فى نقل هذه الحضارة إلى مدى أوسع تجاوزوا به بلاد المغرب إلى قلب إفريقية ، كما أن اتساع ملكهم ، وطول مدة حكمهم ، كانا لهما أثر واضح فى نضوج الحضارة العربية فقد امتزجت المقومات الحضارية فى البقاع المختلفة فى هذا الملك الواسع وتفاعلت معا تفاعلا كان كله خيراً وبركة على حضارة العرب .

* * *

ولما ضعف أمر الموحّدين فى الأندلس ، وأخذت قواعد

ملكهم تخرج من أيديهم تباعا ، بعضها يقع فى أيدى الإسبان وبعضها يقع فى أيدى العرب ظهرت دولة بنى الأحمر (١٢٣٢ — ١٤٩٢ م) وبرز على المسرح محمد بن يوسف المعروف أيضا بابن الأحمر سليل بنى نصر الذين يرجعون فى نسبهم إلى سعد بن عبادة الأنصارى سيد الخزرج ، وأحد كبار الصحابة رضوان الله عليهم . وقد استطاع أن يشق لنفسه طريقا وسط تلك الفوضى التى كانت سائدة فى الأندلس ، وقد نجح فى إقامة مملكة فى غرناطة سنة ١٢٣٢ م .

على أننا ينبغى أن نذكر هنا أن حكم العرب فى الأندلس كان قد أخذ يهتز بقوة قبل قيام مملكة بنى الأحمر بما يزيد على قرن من الزمان ، وأخذت ممالك ملوك الطوائف تسقط الواحدة بعد الأخرى فى يدى الإسبان : ففى سنة ١١١٨ م سقطت مملكة سرقسطة ، وفى سنة ١٢٣٥ سقطت مملكة قرطبة ، وفى سنة ١٢٤١ م سقطت مملكة بلنسية، وفى سنة ١٢٤٣ سقطت مملكة مرسية ، وفى سنة ١٢٤٦ م سقطت مملكة اشبيلية . وقد كان من الممكن أيضا أن تسقط مملكة غرناطة وينتهى بذلك حكم العرب فى تلك البلاد لولا أن شاء القدر أن تقوم فيها دولة بنى الأحمر التى صمدت للأسبان وأجلت الكارثة فترة من الزمان

فلم تسقط إلا فى سنة ١٤٩١ م . وفى خلال هذه الفترة تجمع فى غرناطة المهاجرون من العرب الذين استولى الإسبان على بلادهم وانتشروا فى ربوع غرناطة ، يعملون فى حرفهم المختلفة التى حذقوها فى بلادهم ، واستفادوا بكل ما وجدوه فى وطنهم الجديد من إمكانيات ، حتى لقد قيل إنه لم يبق فى غرناطة شبر من الأرض لم يستغل ، وهكذا بلغت مملكة غرناطة الذروة فى الحضارة الإنسانية ، وتركزت هذه الحضارة العربية بشتى مظاهرها فى هذه المملكة الصغيرة . فازدهر العلم ، ويكفى أن نشير إلى ابن خلدون ومؤلفاته ، وازدهر الشعر ازدهارا نحس به ونحن نقرأ قصائد ابن زمرك على جدران قصر الحمراء ، وازدهر فن البناء ، وفن الزخرفة ، بل وجميع الفنون الزخرفية الأخرى كما تتجلى على الخشب وعلى الخزف ، وعلى الجص . والواقع أن ملوك بنى الأحمر قد استطاعوا بما توفر لديهم من الثروة الطائلة التى جاءت ثمرة للإقبال على العمل فى مملكتهم أن يشيدوا قصر الحمراء ويفرغوا فى تنسيقه غاية جهدهم .

* * *

على أننا قبل أن نخرج إلى هذا القصر الذى يعد من أروع ما وصل إلينا من تراث العرب فى الأندلس ، ومن أبدع معالم الحضارة الإنسانية فى العصور الوسطى — نحب أن نقف قليلا

بين يدى التاريخ الأندلسى متأملين فى تلك الأقوال التى ذهب إليها بعض مؤرخو الإسبان عند تقديرهم لأثر الحضارة العربية فى تاريخ بلادهم . فهناك فئة من هؤلاء المؤرخين تنكر على العرب فضلهم فى ترقية بلادهم ، وتحملهم مسئولية كل ما نزل بإسبانيا من كوارث وهم يعتقدون أنه لولا الفتح العربى لكانت إسبانيا فى طليعة الدول الأوربية من حيث التقدم والرقى .

وأغلب الظن أن الدافع إلى هذا الحكم الجائر الذى لا سند له من الواقع ،هو أولاالتعصب للجنس والرغبة فى محاولة إرجاع أصول الحضارة الأوربية بما فيها حضارة إسبانيا إلى اليونان والرومان بحق وبغير حق ،وثانيا التعصب للدين،فقد كان التسامح الدينى أمرا غير معروف عند الأوربيين فى القرون الوسطى .

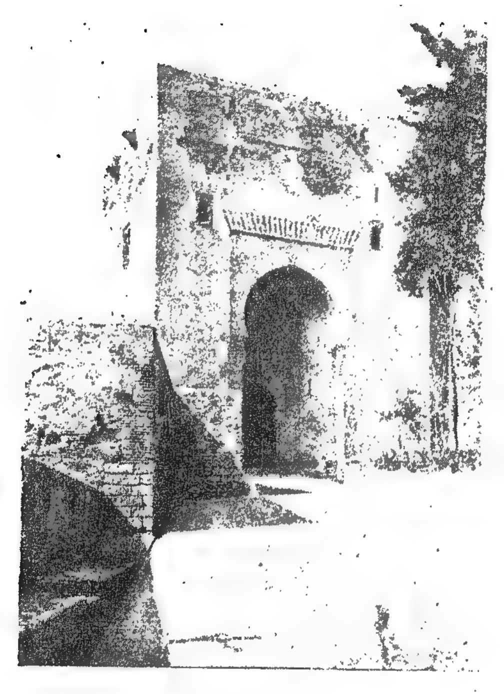
ومن الإنصاف أن نقول إن رأى هذه الفئة من المؤرخين لم يعد أحد يقيم له اليوم وزنا ، بل ينظر إليه بعين الاحتقار والازدراء ، فالأمر الذى لا سبيل إلى نكرانه هو أنه فى الوقت الذى كانت فيه أوربا تعيش فى ظلمات الجهالة والفساد ،كان العرب فى إسبانيا قد أقاموا حضارة زاهرة . ولقد لعبت إسبانيا العربية دورا هاما فى تطور العلم والفن فى أوربا ، وكانت هى حاملة مشعل الحضارة ، تبدد به سحب الجهل ، وتنير به أرجاء أوربا المظلمة .

الآن كتب التاريخ ولنعبر باب الرّمان الذى شيده الإسبان بعد أن استردوا بلادهم جميعاً من العرب والذى استمد اسمه من صورة ثمرة الرمان المرسومة عليه ، ولنتجه إلى « الحمراء » حتى تحدثنا بنفسها عن نفسها .

أما اسمها فأغلب الظن أنه انبعث من لون تربتها الذى يميل إلى الاحمرار بسبب كثرة أكسيد الحديد فى هذه التربة ، ولما كان ملاط أبنيتها قد اتخذ من هذه التربة فقد غلب عليه اللون الأحمر الذى أطلقه العرب على هذه البقعة .

والحمراء نفسها تتكون من قصبة وقصر ، أما القصبة أو القلعة بأسوارها العالية وأبراجها الكثيرة ذات الأسماء المختلفة ، فلن نعرض لها هنا ، وأما القصر فهو الذى سيدور حوله الحديث فى هذا الكتيب .

وهذه القصبة وذلك القصر يقمان معاً على ربوة عالية ، يوصلنا إليها منحدر من الأرض ، يحف به من الجانبين تلال تكسوها أشجار باسقة ينفذ منها الضوء ثم يختفى ، ثم ينفذ ثم يختفى وهكذا



١ — باب الشريعة

دواليك ، وتنبت على حواشيها أزهار مختلفة الألوان لها ، أريج عطر يسكر الفؤاد ، وتتخذ الأطيار من هذه الأشجار مساكن تعرش فيها ، وتتخذ من تلك الأزهار غذاء تعيش عليه ، حتى إذا ما اطمأنت فى حياتها ، أرسلت أغاريدها عذبة شجية تحدث مع خرير المياه المنحدرة عبر تلك التلال أنغاماً تهز أوتار القلوب .

ويحدثك الدليل وهو يجوس معك خلال هذه الغابة أنها لم تكن موجودة على هذه الصورة أيام العرب بل كانت صحراء جرداء أطلق العرب عليها اسم « السبيكة » وكانوا يستعرضون فيها جيوشهم ، ويحتفلون فيها بانتصاراتهم .

* * *

وما تكاد تنتهى من هذه الغابة حتى يواجهك باب عظيم يسمى « باب الشريعة » ، وقبل أن تدخله ينبغى أن تذكر أن الحمراء عند الفتح العربى لم تكن أكثر من حصن صغير قائم فى أعلى التل المشرف على مقاطعة « المرية » ، وقد شيد هذا الحصن لكى يحمى هذه المنطقة ، ويساعد رجال الدولة على إخضاع هذه المقاطعة كلما ثار أهلها لسبب أو لآخر . ولم تكن غرناطة فى ذلك الحين أكثر من مدينة صغيرة فى هذه المقاطعة لم تصمد طويلا أمام غزو العرب ، بل سرعان ما وقعت فى أيديهم عقب انتصار طارق بن زياد على الإسبان ، ثم أخذت

تشق طريقها نحو التقدم حتى استطاعت أن تصل إلى مركز الزعامة فى المقاطعة بأكلها ، وأن تصبح هى العاصمة بدلا من مدينة « المرية » ، وقد كان طبيعيا بعد ذلك أن يتقدم فيها العمران ، وأن تتسع رقعتها وأن تمتد أبنيتها إلى مسافات بعيدة حتى اتصلت بالحمراء وأحاطت بها وأصبحت جزءا منها .

ولقد مرت غرناطة بنفس الأدوار التى مر بها تاريخ العرب فى الأندلس عامة : فحكمها الأمويون ، ثم استقل بها فى عصر ملوك الطوائف زعماء صنهاجة ، ثم حكمها المرابطون ، ثم حكمها الموحدون وفى عهدهم شاعت الفتنة واستطاع محمد بن يوسف النصرى المعروف بابن الأحمر أن يشق طريقه إلى عرش غرناطة ، وأن يؤسس فيها دولة بنى الأحمر التى استطاعت أن توطد دعائم ملكها ، وأن تصمد لهجمات الإسبان قرنين من الزمان أو أكثر قليلا ، وقد كان من حسن حظها أن كان العداء بين أعدائها من الإسبان ناشبا بين بعضهم البعض ، وكانت الحروب بينهم متصلة مما ساعدها على أن تعيش فى أمان هذه المدة الطويلة .

وقد اتخذ محمد بن الأحمر أول سلاطين هذه الدولة من حصن الحمراء مقراً له ، وقوى الأسوار القديمة ، وزاد فى أبراجها ، ثم خطط القصر الذى كانت نواته فى البقعة التى

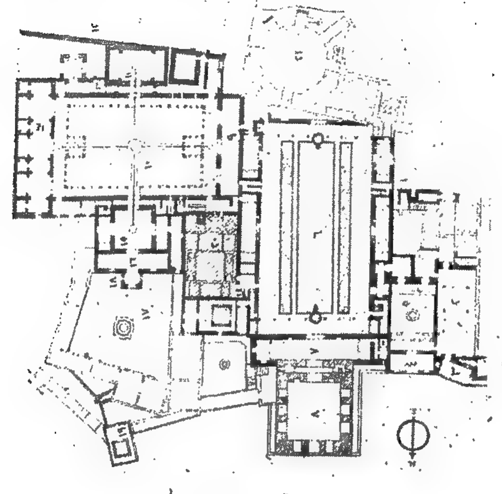
يشغلها اليوم قصر شارل الخامس[1] .

وجاء « الفقيه » ابن محمد بن الأحمر وساهم فى هذا القصر ، وجاء بعد حفيده السلطان محمد الذى شيد المسجد الجامع بجوار القصر ، وقد ذهبت اليوم معالمه ولم يصل إلينا من آثاره إلا البقعة التى كان قائما عليها والتى تشغلها كنيسة القديسة مارى ، كما وصلت إلينا منه ثريا من النحاس آية فى جمال الصنع نشاهدها اليوم فى متحف الآثار بمدينة مدريد .

وقد حكم غرناطة بعد السلطان محمد سلاطين عدة لا يتسع المجال هنا للتحدث عنهم جميعا ، ولذلك سنكتفى بمن ساهم منهم فى تشييد هذا القصر العظيم أو كانت له بقاعاته أو أبهائه صلة وثيقة تدفعنا إلى ذكر شىء من تاريخه .

---

(١) شيد هذا القصر بعد أن استرد الإسبان بلاد الأندلس ، فقد أراد الإمبراطور شارل الخامس أن يوسع أرجاء القصر العربى الذى كان حينئذ قد نما واتسعت أرجاؤه فهدم هذه النواة وشيد فى مكانها قصره الذى لم يتم بناؤه ، وهو بعقوده التى على هيئة أقواس النصر ، وبصحنه المستدير الذى يتوسطه يعتبر فى فن العمارة من الآثار القيمة التى لا يرى لها نظير إلا فى مدينة روما ، ولكنه يبدو هنا قلقا فى موضعه كالنغمة النشاز وسط اللحن المنسجم . (انظر رقم ٢١ من التخطيط) .



١ ـ تخطيط قصر الحمراء

١ ـ المدخل الحالى
٢ ـ المشور
٣ ـ المصلى بالمشور
٤ ـ الغرفة الذهبية
٥ ـ ساحة المشور
٦ ـ ساحة البركة (الريحان)
٧ ـ قاعة البركة
٨ ـ قاعة العرش
٩ ـ قاعة المقرنص

١٠ ـ ساحة الأسود
١١ ـ قاعة بنى سراج
١٤ ـ قاعة العدل
١٥ ـ قاعة الأختين
١٦ ـ قاعة المشربية
١٧ ـ حديقة دار عائشة
١٨ ـ دار عائشة
١٩ ـ برج أبى الحجاج
٢٠ ـ الحمام
٢١ ـ قصر شارل الخامس

والواقع أن قصر الحمراء الحالى من صنع ثلاثة سلاطين : أبو الوليد إسماعيل خامس سلاطين بنى الأحمر . ثم ابنه أبو الحجاج يوسف سابع هؤلاء السلاطين . ثم ابنه محمد الملقب بالغنى بالله .

ولقد بدأ أولهم فى بناء القصر ثم زاد فيه الثانى ، ووسع الثالث من رقعته وجمّله . ويصعب علينا أن نميز اليوم بين أعمال كل منهم تمييزاً دقيقا يرضى رجال الآثار ، ذلك لأن هذه الأعمال قد اندمجت فى بعضها البعض ثم جاءت الترميمات التى عملت بعد خروج العرب من الأندلس فجعلت مهمة التمييز من الصعوبة بمكان.



وتوقف النظر فى « باب الشريعة » الذى وقفنا عنده ، لوحة تتوج مدخله بها نص عربى يقول : «أمر ببناء هذا الباب المسمى باب الشريعة ، أسعد الله به شريعة الإسلام ، كما جعله فخراً باقياً على الأيام ، مولانا أمير المسلمين السلطان المجاهد ، العادل ، أبو الحجاج يوسف ابن مولانا السلطان المجاهد المقدس ، أبو الوليد بن نصر كافأ الله فى الإسلام صنائعه الزاكية ، وتقبل أعماله الجهادية ، فشيد ذلك فى شهر المولد العظيم من عام تسعة وأربعين وسبعمائة ، جعله الله عزة واقية ، وكتبه فى الأعمال الصالحة الباقية » .

ومن اسم هذا الباب المثبت فى ذلك النص ، نستطيع أن نتصور أن قضاة المسلمين ، أيام أن كان حكم الإسلام قائما فى تلك البلاد ، كانوا يجلسون للمتقاضين عند هذا الباب يفصلون فى قضاياهم بكتاب الله وسنة رسوله .

أما أبو الحجاج يوسف المذكور فى هذا النص ، فتذكر لنا كتب التاريخ الكثير من مفاخره وأعماله ، ولن ندخل نحن

فى تفصيل حياته إنما يكفينا أن نشير إلى أمرين كلاهما يصوره لنا من زاويتين هما فى الحق جماع الحضارة : الأمر الأول هو منشآته فى هذا القصر ، وهذه الزاوية تجلو علينا سمو الذوق فى ذلك العصر كما يتجلى ذلك فى تلك الفنون الزخرفية الرائعة . والأمر الثانى هو التسامح ، والشهامة ، والنبل، التى كانت نادرة فى المجتمع الأوربى فى ذلك الوقت بينما كانت شائعة فى المجتمع العربى.

ولعل خير ما يصور هذه الصفات تلك الحادثة التى يرويها المؤرخون ، فقد كانت الحرب قائمة بين الأسبان والعرب ، وكان الجيش العربى محيطاً بجيش الإسبان ، وتشاء المقادير أن يموت ملك الإسبان وهو فى جيشه أثناء الحصار الأمر الذى يضطر جنوده إلى رفع الحصار عن الجزيرة والعودة بجثة مليكهم إلى اشبيلية مخترقين صفوف العرب ، فماذا فعل العرب ؟ أتراهم استغلوا الظرف فانقضوا على جيوش الإسبان وفتكوا بهم ، كلا ولكنهم أفسحوا صفوفهم لموكب الملك المتوفى دون أن يتعرضوا له ، بل وأكثر من هذا أنهم ارتدوا شارة الحداد مجاملة لأعدائهم وتكريماً للملك الفقيد !!

* * *

وإلى جوار هذا النص نرى طلسما مكونا من كف ومفتاح ، وحول هذا الطلسم تدور قصص لاتخلو من طرافة . أما الكف

فهى — على حد قول الدليل — رمز القوة والبطش ، وهى بأصابعها الخمس تشير إلى قواعد الإسلام الخمسة : الشهادتان ، والصلاة ، والصيام والزكاة ، والحج . وقد نقشت هذه الكف على أول أبواب الحمراء لكى تبطش بكل من تحدثه نفسه باقتحامها ومحاولة إيصال الأذى إلى أهلها .

ولقد ذكرنى هذا بما نراه اليوم فى ريفنا المصرى من وضع الكف على بعض المنازل لحمايتها من الشر ، ومن تعليقها على جبين المولود حفظا له من حسد الحاسدين .

ومن الغريب أن هذه العقيدة لا تزال حتى اليوم تجد من يؤمن بها من السذج من أهل غرناطة ، فمنهم من يعلق كفا فى حزامه ، ومنهم من يعلقها على جبين جواده ومنهم من يزين بها رقبة كلبه . ويتخذونها عادة من مواد مختلفة .

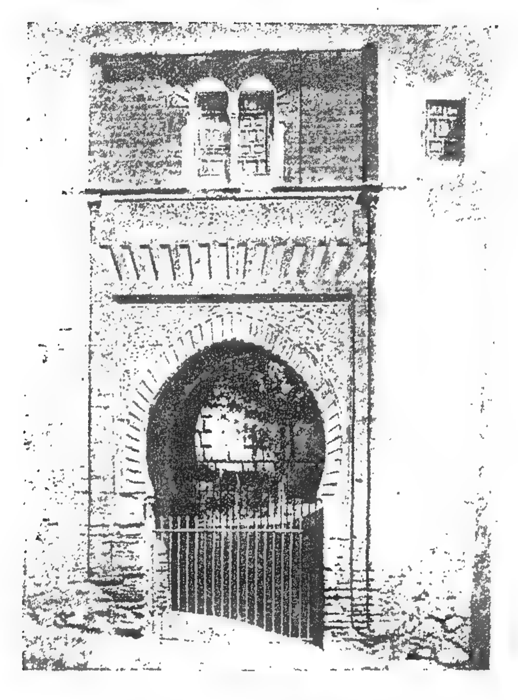
وأما المفتاح فهو شعار أهل الأندلس ، كانوا يرسمونه على أعلامهم ، ولعله يمثل لنا هنا مفاتيح الحمراء . ولا يتركنا الدليل نتأمل هذا الطلسم دون أن يحاول تفسيره تفسيراً يتفق مع هواه ، فيقول لك إن العرب لم يكن يدور بخلدهم قط أنهم سوف يخرجون يوما من تلك البلاد التى فتحها الله عليهم ، وكانوا يعتقدون أن القضاء على الإسلام فى الأندلس أمر يكاد يكون

مستحيلا ، وأنهم أرادوا أن يسجلوا عقيدتهم هذه على الحجر ، فرسموا هذا الطلسم على أول أبواب الحمراء رامزين بذلك إلى أن الحمراء لن تسقط فى أيدى أعدائها إلا إذا دبت الحياة فى هذه الكف المنقوشة على الحجر فتتحرك من موضعها نحو المفتاح القريب منها ، وتمسك به ، وتديره فى أبواب الحمراء لتفتحها للأعداء ، وهذا من غير شك مستحيل الوقوع ، ويمضى الدليل فى حديثه فيقول : إن هذا المستحيل أصبح حقيقة واقعة ، إذ نجح الإسبان فى طرد العرب من البلاد ، ونجحوا فى القضاء على الإسلام فيها ، وسجل الأمير فرديناند والأميرة إيزابلا نصرهما على العرب فى نفس هذه البقعة التى نرى فيها الكف والمفتاح إذ أقاما بها مذبحاً، نشاهد فيه صورة العذراء تحمل السيد المسيح بين ذراعيها ، وإلى جوار هذا المنظر لوح من الرخام مسجل عليه بالخط القوطى هـذا النصر الذى تم فى ينـاير من عام ١٤٩٢ .

السير صعدا نحو القصر ولكننا قبل أن نصل إليه يعترضنا باب آخر يعرف اليوم بين الناس باسم «باب الخمر»، ويقال إن هذه التسمية قد نشأت فى القرن السادس عشر أى بعد انتهاء حكم العرب فى الأندلس بأكثر من قرن، وأنها نشأت عن بيع الخمر بجوار هذا الباب، ولكن أحد الكتاب الإسبان يرى أن هذا التعليل سخيف، ويعتقد أن الباب كان يسمى فى الأصل باب الحمراء، ثم حرفت كلمة الحمراء عند النسخ إلى الحمر، ثم وقعت نقطة عفواً فوق الحاء فانقلبت خاء وصارت الخمر، وتداول النساخون هذا الاسم المحرف.

ويتوج هذا الباب نص تاريخى يتضمن اسم السلطان الغنى بالله ابن السلطان أبو الحجاج الذى شيد «باب الشريعة» سالف الذكر.

وينسب هذا الباب إلى ما قبل عصر بنى الأحمر على أساس أن واجهته الخارجية غاية فى السذاجة لا يزينها إلا زخرفة نباتية



٣ — باب الخمر من الخارج

بسيطة نراها فى خاصرتى العقد وتذكرنا بزخارف عصر الموحدين .

ونشاهد فى الصنجة الوسطى لعقد هذا الباب صورة مفتاح منقوش شبيه بالمفتاح الذى رأيناه على باب الشريعة .

أما الواجهة الداخلية لهذا الباب ، فغنية بالزخارف الدقيقة ، وإذا أضفنا إلى هذه الزخارف النص المكتوب على هذا الباب الذى يتضمن اسم السلطان الغنى بالله ترجح لدينا أن هذا الباب قد جدد فى عهد هذا السلطان . والعقد فى هذه الواجهة الداخلية يزدان بقراميد مختلفة الألوان فيها زخارف محزوزة من النوع المسمى فى الأندلس باسم « الكورداسيكا » .

* * *

ونذكر بهذه المناسبة أن صناعة القراميد من الصناعات التى ازدهرت فى الأندلس ازدهاراً عظيما ، يدل عليه كثرة استعمالها فى تلك البلاد كثرة تستلفت النظر ، وأغلب الظن أن هذه الصناعة قد انتقلت إلى الأندلس من بلاد المغرب حيث ظهرت هناك فى عصر الأغالبة على يدى رجل بغدادى استقدمه إبراهيم أحمد بن الأغلب ، وقد تعلمها أهل المغرب ، وحذقوها حذقاً يدل عليه ما أظهرته منها الحفائر الأثرية فى قلعة بنى حماد ، وفى مدينة العباسة وفى مدينة المهدية ، وفيما نشاهده أيضاً فى بلاد المغرب والأندلس

وقد انتقلت هذه الصناعة إلى مصر من بلاد المغرب ، وشاع استعمالها فى الموانى مثل دمياط ، ورشيد ، والإسكندرية . وهى البلاد التى يحط فيها المغاربة عادة رحالهم عندما يفدون من المغرب إلى مصر فى طريقهم إلى الحج أو للاستقرار فيها ، ولا تزال هذه القراميد تعرف عندنا حتى اليوم باسم « الزليزلى » وهو لفظ قريب من الكلمة المغربية الإسبانية « الزليجى » التى تطلق على هذا النوع .

* * *

والسلطان « الغنى بالله » الذى أشرنا إليه قد تربع على عرش غرناطة وهو لا يزال يافعاً ، فاستأثر بالحكم دونه الحاجب أبو النعيم رضوان .

وكلمة « الحاجب » هذه تستحق منا أن نقف عندها قليلا ، حتى نذهب ماقد تثيره من لبس عند بعض القراء ، فالحاجب فى المغرب غيره فى المشرق ، إذ هو يعنى بالضبط رئيس الوزراء ، ولعل فى وصف ابن خلدون لوظيفة الحاجب ما يؤكد هذا التفسير ، إذ يقول هذا المؤرخ العظيم : « وأما دولة بنى أمية فى الأندلس فأبقوا اسم الوزير فى مدلوله أول الدولة ، ثم قسموا خطته أصنافاً ، وأفردوا لكل صنف

وزيرا : فجعلوا لحسبان المال وزيرا ، وللترسيل وزيرا ، وجعل لهم بيت يجلسون فيه على فرش منضدة لهم ، وينفذون أمر السلطان هنا ، كل فيما جعل له ، وأفرد للتردد بينهم وبين الخليفة واحد منهم ، ارتفع عنهم بمباشرة السلطان فى كل وقت ، فارتفع مجلسه عن مجالسهم وخصوه باسم الحاجب » .

وقد استبد الحاجب أبو النعيم بالأمر ، وقامت فى البلاد ثورة اضطر معها السلطان الغنى بالله إلى الفرار إلى « فاس » بالمغرب ومعه وزيره ابن الخطيب ، وفى مدينة فاس عرف هذا السلطان المؤرخ العظيم ابن خلدون ، ثم عاد السلطان إلى ملكه بعد أن هدأت الثورة ، وعاد معه وزيره ابن الخطيب الذى اتخذ من الشاعر أبو عبدالله بن زمرك معاونا له فى عمله .

ويدين قصر الحمراء لهذا الشاعر بالكثير من القصائد المنقوشة على جدرانه .

وقد كانت لهذا السلطان صلات مودة وصداقة بمصر ، فقد احتفظ لنا القلقشندى فى كتابه « صبح الأعشى » بخطاب بعث به السلطان الغنى بالله إلى السلطان شعبان — أحد سلاطين المماليك — يهنئه فيه بانتصاره الباهر على الصليبيين فى واقعة الإسكندرية .

باب الخمر تقع ساحة الجب ، وهى تعرف بهذا الاسم العربى حتى اليوم ، وعلى هذه الساحة تقع قصبة الحمراء من جهة ، وفى الجهة المقابلة يقع قصر شارل الخامس الذى أشرنا إليه من قبل ، ومن وراء هذا القصر يقع قصر الحمراء نفسه الذى لا يبدو منه إلا بعض أسقفه العالية ، وبعض الجدران البالية ، التى تخفى وراءها أجمل ما شيدته يد الإنسان من قصور .

وقد كان يجرى فى هذه الساحة ، على عهد العرب ، خندق مملوء بالماء حفر بين القصبة والقصر إمعانا فى حمايته من الأعداء جريا على عادة القدماء فى التحصين ، وعندما استولى الإسبان على القصر أمر حاكم الحمراء بردم هذا الخندق وبناء صهريج واسع (جب) يخزن فيه الماء شتاء ليستقى الناس منه صيفا ، ويفتح هذا الصهريج عادة فى شهر يناير من كل عام بعد الانتهاء من الاحتفال بذكرى استعادة الإسبان لمدينة غرناطة وضواحيها ، وينزح ما فيه من مياه قديمة ، ويزال ما علق بجدرانه وأرضه من طين ،

ثم يملأ بماء جديد ، يجذب إليه من نهر دارو المعروف بعذوبة مائه وبرودته .

وما نكاد نقطع ساحة الجب حتى نجد أنفسنا بين يدى القصر ، ونبحث عن مدخله فلا نرى إلا بناء حديثاً ، ثقيل الظل ، به غرفة الحارس الذى يشرف على الزوار ويأخذ أجر الزيارة . ترى هل هذا البناء الحديث قد شيد مكان المدخل الأصلى للقصر ؟ أغلب الظن أنه ليس كذلك ، ولا يكاد يتفق علماء الآثار على مكان هذا المدخل ، بل نراهم يتخبطون فى تحديده ، ولهم العذر فى ذلك ، فلقد تغيرت معالم القصر فى هذا الجزء فهدمت منه أجزاء ، وأضيفت إليه أجزاء ، وبين الهدم والبناء ضاع الأصل ، على أن ذلك لا يمنعنا من أن ندخل مع الداخلين .



وأول أقسام القصر هو « المشور » وهو المكان المخصص في القصر للموظفين الذين يعاونون السلطان في إدارة شئون مملكته .

ولقد تغيرت معالم هذا الجزء من القصر تغيرا يكاد يكون تاما ولم يبق منه إلا القليل الذى لا يعاون كثيرا على تكوين فكرة واضحة المعالم عما كان عليه « المشور » فى الأيام الماضية ، على أن سماته العربية لا تزال بادية للعين نراها فى زخارفه الجصية ، وفى فسيفسائه الرخامية ، وفى شعار بنى الأحمر الذى نراه بين أشعرة حكام الحمراء من الإسبان .

ونلحظ على اليمين فى طريقنا إلى داخل « المشور » أبنية حديثة ، يشغلها متحف الحمراء ، أما على اليسار فتوجد مكاتب الحراس ، وليس هناك من شك فى أنه كانت هنا ، فى العصر العربى ، الغرف التى كان يعمل فيها موظفو السلطان .

أما ما يتبقى من أبنية « المشور » فنراه فى القاعة الكبرى التى حولت إلى كنيسة فى القرن السابع عشر الميلادى ولا نزال نجد فى هذه القاعة بعض الأشعار العربية التى تتضمن اسم السلطان محمد الملقب بالغنى بالله :

٤ — المشور

يا منصب الملك الرفيع وحرز الشكل البديع
فُتِحتَ للفتح المبين وحسن صنع أو صنيع
أثر الإمام محمد ظل الإله على الجميع

* * *

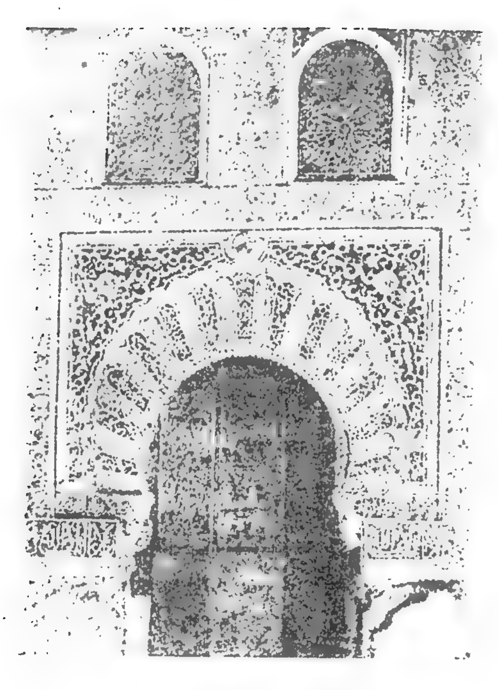
ووراء هذه القاعة الكبرى توجد « المصلى » التى لا تزال تحتفظ حتى اليوم بمحرابها الجميل الذى تتوجه عبارة مكتوبة بخط كوفى جميل نصها : « اقبل على صلاتك ولا تكن من الغافلين » .

ووجود « المصلى » فى « المشور » أمر طبيعى ؛ فقد كان الحرص على أداء الصلاة فى مواعيدها فى تلك الأيام شديداً ، ولعلنا نلمس اليوم بعض هذا الحرص فى تلك المصليات الصغيرة التى نراها فى بعض المؤسسات الحكومية التى يؤمها الموظفون الحريصون على أداء الصلاة فى أوقاتها .

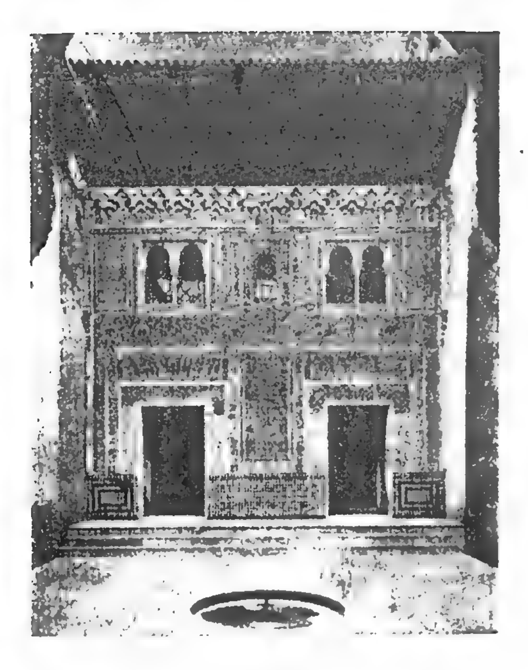
* * *

وإلى اليمين من القاعة الكبرى والمصلى نرى ساحة يقول لك الدليل إنها ساحة المسجد والأولى أن تسمى ساحة المشور ، وهى صغيرة إذا ما قيست بغيرها من ساحات القصر ، وتتوسطها نافورة صغيرة تمج الماء من فمها .

وإلى الشمال من هذه الساحة ، سقيفة جميلة تتقدم قاعة يقول



٥ — محراب مصلى المشور



٦ — ساحة الثور وواجهة القاعة الذهبية

لك الدليل عنها إنها « الغرفة الذهبية » ، وقد عرفت بهذا الاسم منذ القرن السادس عشر ، وقد استمدته من الزخارف المذهبة التى كانت تزدان بها . والأغلب الظن أن هذه القاعة كانت مخصصة « للحاجب » أو بالتعبير الحديث لرئيس الوزراء الذى كان بحكم منصبه المهيمن على جميع موظفى المشور .

وإلى الجنوب من هذه الساحة نرى سقيفة أخرى تحتها بابان : الأيسر منهما يفضى إلى قاعة صغيرة تقود الزائر إلى «ساحة الريحان» التى سنتحدث عنها فيما بعد، والباب الأيمن يقود إلى المدخل الأصلى للقصر — كما يظن بعض الأثريين — وقد سدت معالمه الآن، وفوق هذين البابين طراز من الخشب حفرت فوقه هذه الأشعار الجميلة :

منصبى تاج وبابى مفرق — يحسد المغرب فىّ المشرق
والغنى بالله أوصانى أن — أشرع الفتح لفتح يطرق
فأنا منتظر طلعته — قبل ما يبدى الصباح الأفق
أحسن الله له الصنع كما — حسن الخلق له والخلق

« المشور » إلى القسم الثانى من القصر وكان يعرف — فى الغالب — « بالديوان » وهو يشمل « ساحة البركة » و « قاعة البركة » ثم « قاعة العرش » أو « قاعة السفراء » كما تسمى أحياناً .

وهذا القسم محتفظ إلى حد كبير بمظهره القديم ، ويكاد يكون مستقلا بذاته عن الجزء السابق عليه ، والجزء اللاحق له ، فإلى الجنوب منه يقوم مدخل مستقل له تظلله سقيفة محمولة على عقود جميلة متكئة على أعمدة رشيقة ، وأغلب الظن أن هذا المدخل كان يفضى إلى الباب الرئيسى للديوان .

ويلاحظ أن السقيفة كان فوقها طابق علوى لم يبق منه إلا جدار واحد ، مما يدل على أن هذا الجزء من القصر كان مكوناً من طابقين أو أكثر قبل أن يهدم لكى يشيد مكانه قصر شارل الخامس الذى لا يزال قائماً . ولا نزال نرى فى هذا الجدار الباقى سبع نوافذ قد سدت بستائر شبكية من الخشب المخروط المعروف باسم «المشربية» وسوف نتحدث عنه فيما بعد.

وتمتد أمام هذا المدخل ساحة كبيرة مستطيلة الشكل ، تتوسطها

بركة من الماء ، تحف بهـا أشجار الريحان ، وفى طرفيها الشمالى والجنوبى نافورتان صغيرتان .

والجدران الأربعـة المحيطة بهذه الساحة التى تعرف بساحة البركة أو ساحة الريحان تزدان بزخارف رائعـة بعضها قد ذهب به الزمن ، وبعضها لا يزال يملأ أقطار العين بجماله ، ويزيد هذه الساحة روعة شعر ابن زمرك الذى تقرأه على هذه الجدران :

تبارك من ولاك أمر عباده
فأولى بك الإسلام فضلا وأنعما

فكم بلدة للكفر صبحت أهلها
وأمسيت فى أعمارهم متحـكما

وطوقتهم طـوق الإسار فأصبحوا
يبابك يبنون القصور تخـدما

وفتحت بالسيف الجزيرة عنوة
ففتحت باباً كان للنصر مبهـما

ومن قبلها استفتحت عشرين معقلا
وصـيرت ما فيهـا لجيشك مغـنما

فلو خـيّر الإسـلام فيما يريده
لما اختار إلا أن تعيش وتسلما

طلعت بأفق المالكية رحمة
ليجلو ما قد كان بالظلم أظلما
فأمّنت حتى الغصن من نفحة الصبا
وأرهبت حتى النجم فى كبد السما
فإن رعشت زهر النجوم مخيفة
وإن مال غصن البان شكرك يمما

* * *

وقد أثارت هذه الساحة فى النفس الشجن عندما تذكرتُ الأيام الأخيرة من عصر بنى الأحمر، يوم ضعفت الحمية العربية، واستولت الأنانية على النفوس، فأنكر الأخ أخاه، وجحد الابن فضل أبيه فامتشق فى وجهه الحسام، وإننى لأتخيل اليوم وأنا أجوب أطراف هذه الساحة — السلطان الغالب بالله الذى تربع على عرش غرناطة بعد ستة عشر سلطاناً سبقوه، أتخيله يوم كان قوياً مهاباً، يبعث الرعب فى قلوب الإسبان، وأتخيله يوم ضعف وتخاذل، وأسلم قياده لجارية إسبانية سيطرت عليه بشبابها فكان يرى بعينيها، ويفكر بعقلها، ويصرف الأمور وفق أهوائها، وأتخيله أيضاً يوم أثار بزواجه من هذه الجارية حرباً شعواء فى داخل قصره بين أنصار زوجته الأولى وأنصار

٧ — ساحة البركة وحصن قمارش

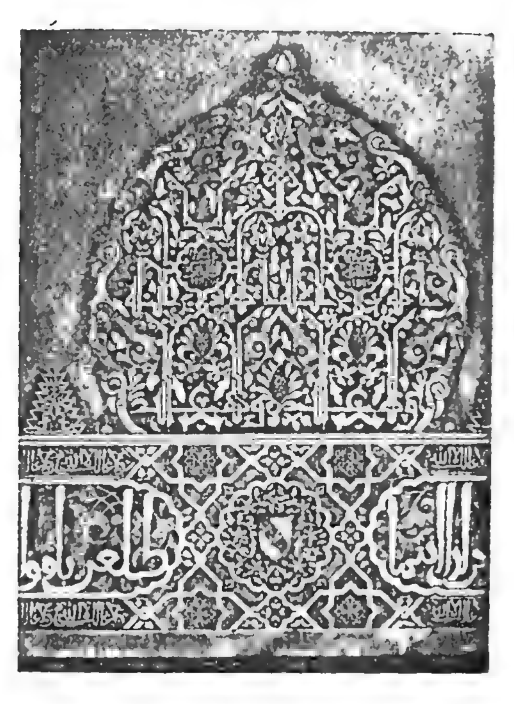
هذه الزوجة الأجنبية ، وأتخيله وهو متكىء على وسادة فوق طنفسة مفروشة فى هذه الساحة وقد ألقى بسمعه إلى عرّاف يتنبأ له بزوال ملك بنى الأحمر فى عصر ولده الذى سوف يحكم بعده ، والذى قدر له أن يكون آخر سلاطين بنى الأحمر ، بل إننى لأتخيل السلطان أبا عبد الله الزغل شقيق هذا السلطان يوم تربع على العرش ، وجلس فى نفس هذه الساحة ينصت فى وجوم إلى أغانى جاريته مريم ، وقد شرد عقله ، وتشتت فكره فى مصير تلك الحرب الدائرة بينه وبين ابن أخيه أبى عبد الله ، الذى كان يريد أن يسترد عرشه وعرش أبيه من قبله .



أن ننسى أو نتناسى ما أثارته هذه الساحة فى النفس من أشجان، بأن نتأمل فى تلك الزخارف الرائعة التى تزدان بها الجدران، حيث تجلت عبقرية الفنان العربى أروع ما تجلت فى الزخرفة الكتابية ، إذ استطاع أن يخلق ، بحذقه ومهارته ، من الحروف العربية طرازاً زخرفياً ينطق بنضوجه الفنى ، ويدل على أنه قد أمعن النظر فيما أبدعته يد الله من الكائنات ، وتتبع أصول الجمال فى تكوين هذه المخلوقات ، فرأى فيها التماثل والتكرار والتنوع ، وأخذ يحاكى هذه الأصول فيما أبدعته يداه .

* * *

ولنترك هذه الساحة إلى قاعة البركة التى تقع إلى الشمال منها ، وتتقدمها سقيفة شبيهة بالسقيفة التى رأيناها إلى الجنوب ، وتتكون من سبعة عقود تتكىء على ثمانية أعمدة رشيقة . ومدخلها عقد كبير ، فى كل من ساقيه حنية ذات عقد صغير من الرخام ، بها أبيات من الشعر تشير فى الغالب إلى السلطان الغنى بالله ، وتفصح بمعناها عن الغرض الذى من أجله عملت ، وهكذا



٨ — زخارف من ساحة الريحان

يخدم الشعر ، فى بعض الأحيان ، رجال الآثار فيكشف لهم عن بعض ما يغمض عليهم ، ويهديهم إلى الرأى الصحيح . فنى الحنية اليمنى نقرأ :

أنا مجلاة عروس ذات حسن وكمال
فانظر الإبريق تعرف فضل صدقى فى المقال
واعتبر تاجى تجده مشبها تاج الهلال
وابن نصر شمس ملك فى ضياء وجلال
دام فى رفعة شان آمنا وقت الزوال

وفى الحنية اليسرى نقرأ :

أنا نحر لصلاة ممتنه سمت السعاده
تحسب الإبريق فيها قائما يقضى عباده
كلما يفرغ منها وجبت فيه الإعاده
إن مولاى ابن نصر شرف الله عباده
كان سعد الحى حى سعد بن عباده

ومن هذه الأشعار نستطيع أن نستنتج أن كلتا الحنيتين كانت معدة لوضع الأباريق المملوءة بالشراب ، أو المملوءة بالماء المعد للوضوء وليست — كما تخيل بعض الفرنجة — معدة لوضع الأحذية فيها بعد خلعها توطئة للدخول إلى قاعة العرش التى تلى هذه القاعة .

وراء « قاعة البركة » برج عظيم يعرف ببرج قمارش تقع بداخله قاعة العرش أو قاعة السفراء .

والداخل إلى هذه القاعة لا بد له أن يمر تحت عقدين جميلين يفصل بينهما قبو ، وهنا أيضا نجد حنيتين مثل اللتين رأيناهما فى الغرفة السابقة ، قد أعدتا لكى توضع فيهما أوانى الماء ، ونقرأ فى الحنية اليمنى :

فقت الحسان بحليتى وبتاجى	وهوت إلى الشهب فى الأبراج
يبدو إناء الماء فىّ كعابد	فى قبلة المحراب قام يناجى
ضمنت على مر الزمان مكارمى	رى الأوام وحاجة المحتاج
فكأننى استقريت آثار الندى	من كف مولانا أبى الحجاج
لا زال بدرا فى سمائى لائحاً	ما لاح بدر فى الظلام الداجى

وفى الحنية اليسرى نقرأ :

رقت أنامل صانعى ديباجى	من بعدما نظمت جواهر تاجى
وحكيت كرسىّ العروس وزدته	أنى ضمنت سعادة الأزواج
من جاءنى يشكو الظما فواردى	صرف الزلال العذب دون مزاج

لا زال محروس المثابة ما غدا بيت الولاة مثابة الحجاج

وتشير هذه الأشعار كما ترى إلى السلطان أبى الحجاج يوسف سابع سلاطين بنى الأحمر الذى ذكرناه من قبل .

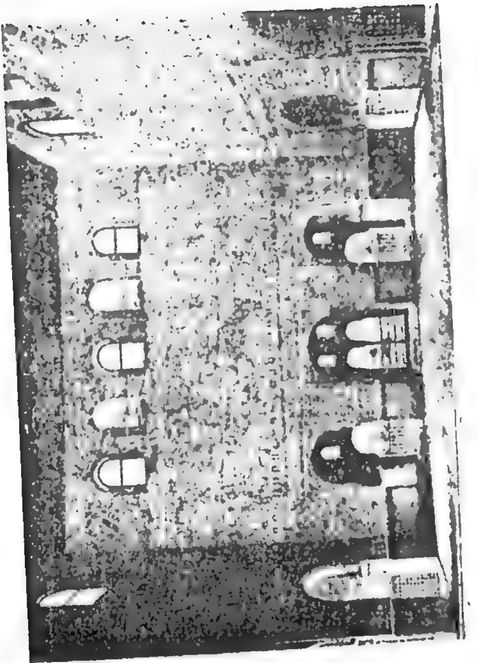
وحول هاتين الحنيتين تقرأ بيتاً جميلا من الشعر :

أدافع عن يوسف أذى كل طرف رمق
بخمس كآيات قل أعوذ برب الفلق

* * *

أما قاعة العرش نفسها التى يطلق عليها أيضا اسم قاعة السفراء، أو قاعة قمارش ، أو قاعة الحنـايا ، فتعتبر أفخم وأوسع قاعات قصر الحمراء جميعاً ، وتعليل هذه الأسماء المختلفة التى تطلق عليها لايحتاج إلى تفكير عميق ، فهى قاعة العرش لأن عرش سلاطين بنى الأحمر كان فيها كما تدل على ذلك أبيات الشعر التى سنذكرها بعد قليل ، وهى قاعة السفراء لأن سفراء الدول الأجنبية كانوا يستقبلون فيها سواء فى العصر العربى أو فى العصر الإسبانى ، وهى قاعة الحنايا لكثرة مابها من الحنايا ، وهى قاعة قمارش نسبة إلى بلدة بهذا الاسم واقعة فى إقليم غرناطة جاء منها البناءون الذين شيدوا هذا الحصن وهذه القاعة .

والقاعة مربعة الشكل ، جدرانها تزدان بزخارف شتى ، ففى أسفلها نرى القراميد المختلفة الألوان التى تحدث فى تجمعها أشكالا



٩ — قاعة العرش

نجمية ، وفوق هذه القراميد نشاهد زخارف جصية تغطى الجدران وتبرز عنها قليلا وهى ملونة بألوان شتى . وقد بلغت الزخرفة الجصية هنا غاية نضجها وهى تجلو أروع ما أخرجته يد الإنسان فى هذا النوع من الزخرفة ، ليس فى هذه القاعة وحسب بل فى شتى أجزاء القصر ، وعلى الرغم من أن العناصر الزخرفية التى استعملت محدودة إلا أن الفنان العربى قد نجح فى جعلها تبدو كما لو كانت مختلفة غير مكررة . أما الحنايا المختلفة فى هذه القاعة فأهمها تلك التى تتوسط الجدار المقابل للمدخل الرئيسى للقاعة ، فقد كان فيها عرش السلطان ، والفضل فى تحديد هذا المكان للعرش إنما يرجع إلى الشعر الجميل الذى يزين هذه الحنية والذى يقول فيه الشاعر على لسان العرش :

تحييك منى حين تصبح أو تمسى
ثغور المنى واليمن والسعد والأنس
هى القبة العليا ونحن بناتها
ولكن لى الفضل والعز فى جنسى
جوارح كنت القلب لا شك بينها
وفى القلب تبدو قوة الروح والنفس

وإن كان أشكانى بروج سمائها

فنى عـدا ما بينها شرف الشمس

كسانى مولاى المـؤيد يوسف

ملابس فخـر واصطناع بلا لبس

وسيرنى كرسىّ ملك فأبدت

علاه بحق النور والعرش والكرسى

* * *

وتغطى هذه القاعة قبةعظيمة تعدمن أروع القباب العربية ، كانت فى الأصل من الخشب الذى تزينه زخارف هندسية شتى وكان يدور حولها طراز يزدان — على حد قول سيكادى لوسينا — بسورة الملك ، ولكننى فى الواقع لم أر شيئاً من هذا ، ولعل ذلك كان موجوداً قبل الإصلاح العظيم الذى أجرى فى هذه القاعة فى القرن الثامن عشر .

* * *

وتثير هذه القاعة فى النفس ذكريات شتى ، ففيها وقعت أهم حوادث تاريخ الأندلس على عهد بنى الأحمر ، وعلى عهد فرديناند وإيزابلا ، ويكفى أن نذكر أنها شهدت شجاعة السلطان أبى عبد الله آخر سلاطين بنى الأحمر يوم شدد عليه الإسبان حصارهم ، فصمم على أن يقاومهم ، ويخرج لهم بمفرده حاملا سيفه ليفك حصارهم ، ويذيقهم مرارة الهزيمة لولا خوفه على زوجه ،

وأخته ، وطفله ، وأمه ، ثم شهدت هذه القاعة أيضا ضعف هذا السلطان واستسلامه ، يوم حمل مفاتيح غرناطة إلى فرديناند وإيزابلا ، ووقفت أمه السلطانة عائشة الحرة تؤنبه وهى تشير بأصبعها إلى مدينة غرناطة الرابضة تحت القصر وتقول له: «تذكر أن هذا الملك الذى تسلمه اليوم إلى أعدائك، قد شيده أسلافك بدمائهم،وعرق جبينهم ،قد انتهى اليوم على يديك». وشهدت هذه القاعة كذلك كريستوف كولمبس يوم استجاب لرجائه فرديناند وإيزابلا ، وأمداه بالسفن لتحقيق أمنيته فى اكتشاف المجهول ، فخرج من هذه القاعة وقد شملت الغبطة كيانه وأشرق وجهه بنور الأمل .



أدراجنا إلى ساحة الريحان، وتنفذ من جانبها الشرقى إلى قاعة يطلق عليها اسم « قاعة المقرنص » .

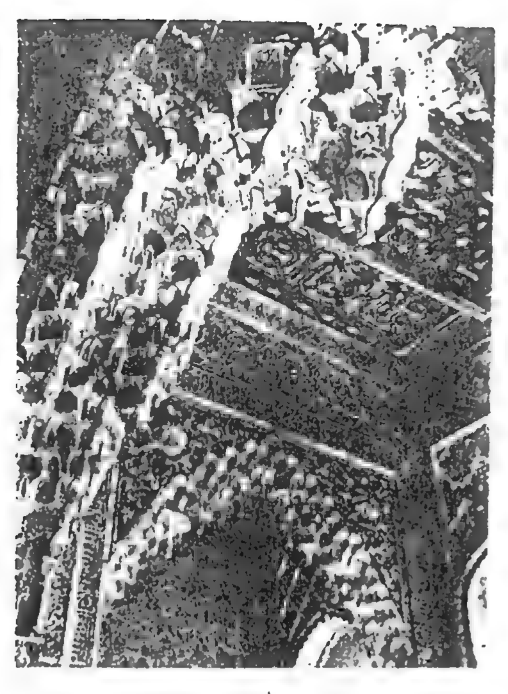
والمقرنص أو المقربص نوع من الزخرف، ابتدعه العرب، وأصبح من مميزات فنهم، وله صور شتى : بعضها يشبه الرواسب الكلسية المخروطية الشكل التى تتدلى من أسقف بعض الكهوف، ومن هنا أطلق عليه الأجانب اسم Stalactite، وبعضها يشبه خلايا النحل أو عش النمل .

والواقع أن أصل المقرنص فى الفن العربى هو الكوة التى تقام فوق الزوايا الأربع لغرفة مربعة يراد تسقيفها بالقبة ، وبواسطة تلك الكوى الأربع يستطيع البناء أن يوجد سطحا يمكن للقبة أن تستقر عليه، وقد ورث العرب هذه الطريقة عن الأمم السابقة عليهم، واستخدموها فى عمائرهم، ولكنهم لم يستطيعوا أن يصبروا طويلا على سذاجتها ، بل ما كاد يتهذب ذوقهم، وترتقى ملكتهم الفنية، حتى أخذوا يعدلون فى شكل تلك الكوى، ويعقدون فى مظهرها، فقسموها إلى كوى صغيرة متعددة، وتفننوا فى وضع هذه الكوى الصغيرة، وفى تنسيقها

وفى تزيينها، حتى يبدت قطعة من الفن الجميل كلما تأملت فيها غمرتك بلذة روحية، وزادتك يقينا بعظمة الفن العربى. وقد شاء لهم حسهم الفنى ألا يقفوا بها عند حد استعمالها تحت القباب، بل اتخذوا منها وسيلة لتزيين الفتحات من أبواب ونوافذ، وتزيين العقود والمداخل. ويعتبر قصر الحمراء خير مثال يتجلى فيه جمال هذا النوع من الزخرف على تعدد صوره وأشكاله.

ولا شك أن تسمية هذه القاعة بقاعة المقرنص يرجع إلى أنها كانت تحتوى على أمثلة رائعة منه ضاعت بسبب انفجار مصنع للبارود كان بالقرب من هذا المكان فى القرن السادس عشر.





١٠ — زخرفة المقرنص كما تتجلى فى ساحة الأسود

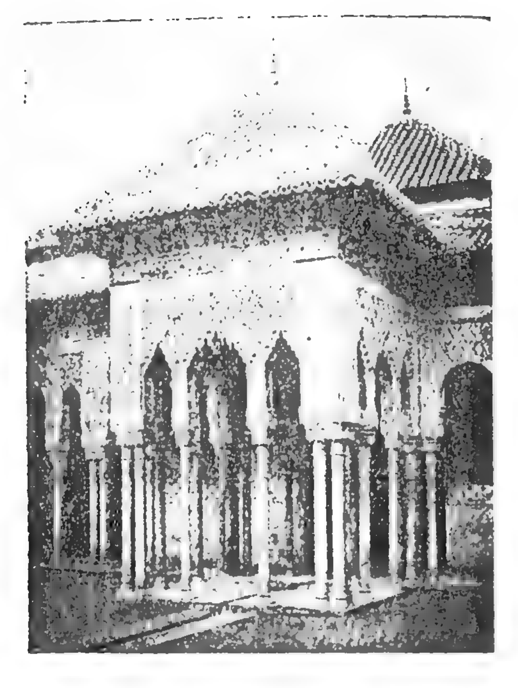
وخرجت من قاعة « المقرنص » إلى ساحة الأسود ، وما كدت أتوسطها حتى زاغ بصرى من الدهشة ، وأنا أتلفت إلى جوانبها ، وأحاول أن أحيط بأجزائها ، وتسمرت قدماى ، فلا أبغى عنها حولا ، وتذكرت فى تلك الساعة كل ماقرأته عنها من قبل فبدا لى ضعيفاً ، لم يستطع أن ينقل إلى ذهنى حقيقتها ، واستعرضت فى مخيلتى كل ما رأيته لها من صور فظهرت تلك الصور أمام بصيرتى باهتة عاجزة عن أن تمثل جمالها حق التمثيل ، وآمنت عندئذ بأن هذه الساحة جديرة بتلك الشهرة التى نالتها أو تنالها .

ثم أخذت أتأمل فيها فإذا هى مستطيلة ، طولها يقرب من ضعف عرضها ، وتحيط بها سقيفة محمولة على عقود نصف دائرية ، متعددة الفصوص مستقرة على عمد رشيقة . وفى الجانبين القصيرين جوسقان ، يبرزان إلى الساحة بشكل يتجلى فيه التناسق والتناسب ، وقد زينت أرضية كل منهما بالرخام ونبتت فى وسطها نافورة صغيرة ، وقد غطى كل منهما بقبة تستند على

عقود مدية قليلا، أشبه ماتكون بثمرة الكمثرى ، ويتوج هذه العقود ستائر من الجص المخرم كأنها الدنتلا ، تفننت فى تخريمها وتطريزها يد صناع ماهرة ، أو كأنها الشباك المنسوجة من خيوط متقاطعة، تكون فى تقاطعها معينات متجاورة، يتصل بعضها ببعض ، وقد ذاع استعمال هذا النوع من الزخرف فى القصر بل ذاع فى الأندلس عامة، وانتقل منها إلى بلاد المغرب ثم إلى العالم العربى ، وأضحى من خصائص الفن العربى الأندلسى .

* * *

وللأعمدة فى هذه الساحة جمال أخاذ ، وقد وصل تاج العمود العربى هنا إلى ذروة نضوجه ، وبدا هذا العنصر المعمارى الذى يفرق عادة بين فن وفن فى أبهى حلله ، والواقع أننى ما كدت أتأمل جمال هذه التيجان ، ورشاقة أبدان هذه الأعمدة، حتى سرح خاطرى إلى أعمدة معبد الكرنك فى الأقصر التى تمتاز بطولها وضخامة قوامها ، وأخذت أقارن بين هذه العمد الرشيقة التى يكاد يطوى الإنسان اثنين منها بذراعه وبين تلك العمد الضخمة التى تحتاج إلى أكثر من سبعة رجال يفردون أذرعتهم ليعانقوا الواحد منها . وأدركت حينئذ أن موطن الجمال فى الفن الفرعونى كامن فى جلاله وضخامته بينما موطن الجمال



١١ — أحد الجوسقين في ساحة الأسود ، وتتجلى هنا ستائر الجص المخرم ، ورشاقة الأعمدة

فى الفن العربى كامن فى رقته ورشاقته ، وتبينت أن الفنان العربى، مثل سلفه الفنان الفرعونى ، إنما كان يهدف إلى الإتقان، ويسعى جاهدا إلى الوصول إلى الكمال ، سواء كان الإنتاج الفنى مهولا يحس الإنسان بجواره بضآلته ، أوكان رقيقا يشيع فى النفس الغبطة والطمأنينة . ولئن كانت عقيدة الفنان الفرعونى قد دفعته إلى هذا التشييد الضخم ليضمن لمنشآته الخلود ، ويحول بينها وبين الفناء ، فإن الفنان العربى الذى يؤمن أشد الإيمان بأن الخالد هو الله وحده ، وأن العالم بمن فيه وما فيه مآله إلى الزوال « كل من عليها فان ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام » لم يهدف فى منشآته إلى الخلود لأنه لم ير من اللائق — وهذه العقيدة منقوشة فى صدره — أن يخلد بأعماله الفنية ما كتب الله عليه الفناء ، بل كان يهدف إلى تجميل هذه الحياة وإلى مزاولة الفن للفن .

* * *

وليست أعمدة ساحة الأسود وحدها هى التى يبدو فيها هذا النضوج، بل إن الساحة بأكملها تجلو علينا صورة تنطق بنضوج فنى عام يتجلى فى التخطيط ، ولعل خير وسيلة لإدراك هذا التطور هى أن نستحضر فى الذهن صورة « ساحة الريحان » التى شاهدناها من قبل ونقارنها بهذه الساحة ، فساحة الريحان

يحف بها من جانبيها القصيرين سقيفتان وراء كل منها غرف مبنية ، ويتوسط هذه الساحة بركة مستطيلة تحيط بها من الجانبين الطويلين أشجار الريحان . أما ساحة الأسود فالسقيفة فيها تدور حول جوانبها الأربعة ، والغرف الرئيسية تقع فى الجانبين الطويلين بينما فى الجانبين القصيرين نرى جوسقين جميلين تنعكس على قراميدها المختلفة الألوان أشعة الشمس نهارا وضياء القمر ليلا ، وإذا كانت أشجار الريحان تضيف إلى الجمال المصنوع جمالا مطبوعا فإن ساحة الأسود كان بها — على حد قول الرحالة الذين رأوها قبل استيلاء الإسبان على القصر — ست شجرات باسقات من أشجار البرتقال تلقى بظلالها الوارفة على أرجاء الساحة .

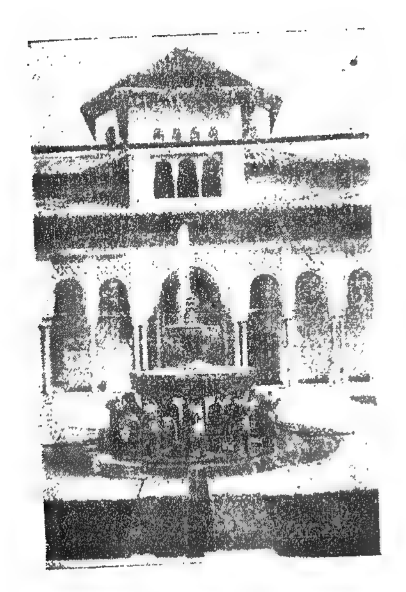
* * *

أما النافورة التى تتوسط ساحة الأسود ، وتمتد منها قنوات طويلة إلى الجهات الأربع الأصلية فهى من غير شك أروع فى منظرها من البركة التى تتوسط ساحة الريحان .

وتتكون هذه النافورة من قصعتين من الرخام : العليا صغيرة والسفلى كبيرة محمولة على اثنى عشر عامودا قصيرا تتكىء على ظهور اثنى عشر أسدا نحتت من الحجر نحتا غير دقيق .

* * *

والواقع أن الفنان العربى لم يبرز فى فن عمل التماثيل بروز الفنان



١٢ — نافورة ساحة الأسود

الفرعونى واليونانى أو الرومانى أو فنانى عصر النهضة الأوربية .

وقد يتبادر إلى الذهن أن قصور الفنان العربى فى هذه الناحية فيه ما يزرى بمكانته ، أو يعد دليلا على تأخر الفن العربى ، فليس هناك من شك فى أن لكل فن بيئته ، والعوامل التى تحكمت فى نشأته ، والمصادر التى اعتمد عليها فى تطوره . فاليونان القدماء مثلا قد تخيلوا آلهتهم على هيئة الإنسان ، فعملوا لها تماثيل أفرغوا جهدهم فى نحتها ، فخرجت من بين أيديهم رائعة ، جميلة ، متناسقة الأبعاد ، موزونة الأجزاء ، حتى لتعتبر إلى اليوم المثل الأعلى فى فن النحت ، أما العرب فلم يكن فى حياتهم الفكرية ما يحفزهم إلى عمل تماثيل جميلة مثل تماثيل اليونان ، والمصادر التى اعتمد عليها العربى فى النهوض بفنه هى فن الساسانيين فى الفرس والعراق ، وفن البيزنطيين فى مصر والشام وشمال إفريقية ، ولم تكن عناية هذين الفنين بعمل التماثيل مثل عناية الفراعنة أو اليونان أو الرومان ، لأن الساسانيين كانوا يعبدون النار وهى عبادة لا تحتاج إلى تماثيل ، ولأن البيزنطيين كانوا يدينون بالمسيحية وهى دين توحيد ، وقد تأثر العرب بهذين الفنين فلم يعنوا بعمل التماثيل أسوة بهما ولم تكن صناعتها مجالا لنشاط الفنانين فيهم خصوصا بعد أن أعلن الإسلام الحرب على الوثنية ، واعتبر

القرآن الكريم « الأنصاب » — وهى التماثيل التى تعبد من دون الله — رجسا من عمل الشيطان على المسلمين أن يجتنبوه ، وقد أدرك أسلافنا أن التحريم إنما ينصب على التماثيل التى تعبد من دون الله ، أما تلك التى تتخذ لغير هذا الغرض فلم يتحرجوا من عملها ، واستخدامها فى تزيين قصورهم ، وصنعوها على هيئة الحيوان كتلك التى شاهدناها فى ساحة الأسود أو على هيئة الإنسان كتلك التى كشفت عنها الحفائر الأثرية فى قصر هشام الخليفة الأموى بخربة المفجر فى شرقى الأردن .

* * *

ترى هل احتفظت هذه النافورة بشكلها الذى كانت عليه عند إنشائها أم دخل عليها شىء من التعديل عبر القرون ؟

لقد اختلفت إجابة علماء الآثار على هذا السؤال ، فمنهم من يرى أنها تحتفظ بشكلها القديم فيما عدا القصعة الصغيرة فهى دخيلة عليها ، ومنهم من يرى أن القصعة الكبيرة كانت تتكىء على ظهور الأسود مباشرة ولم تكن هناك الأعمدة الصغيرة التى نراها اليوم .

وتزدان القصعة الكبيرة بقصيدة رائعة من شعر ابن زمرك مدح فيها السلطان الغنى بالله ، ووصف النافورة وصفا جميلا إذ يقول :

تبارك من أعطى الإمام محمدا

مغانى زانت بالجمال المغانيا

وإلا فهــذا الروض فيه بدائع

أبى الله أن يلقى لها الحسن ثانيا

ومنحوتة من لؤلؤ شف نورها

تحلى بمرفض الجمان النواصيا

يذوب لجين ســال بين جواهر

غدا مثلها فى الحسن أبيض صافيا

تشابه جار للعيون بجــامد

فلم يدر أيا منهما كان جاريا

ألم تر أن المــاء تجرى بصفحها

ولـكنهــا مدت عليــه المجــاريا

كمثل محب فاض بالدمع جفنــه

وغيض ذاك الدمع إذ خاف واشيا

وهل هى فى التحقيق غير غمــامة

تفيض إلى الآســاد منها السوافيا

وقد أشبهت كف الخليفة إذ غدت

تفيض إلى أســد الجهاد الأياديا

فيا مَنْ رأى الآساد وهى روابض

عداها الحيا عن أن تكون عواديا

ويا وارث الأنصار لا عن كلالة
تراث جلال يستخف الرواسيا
عليك سلام الله فاسلم مخلدا
تجدد أعيادا وتبلى أعاديا

* * *

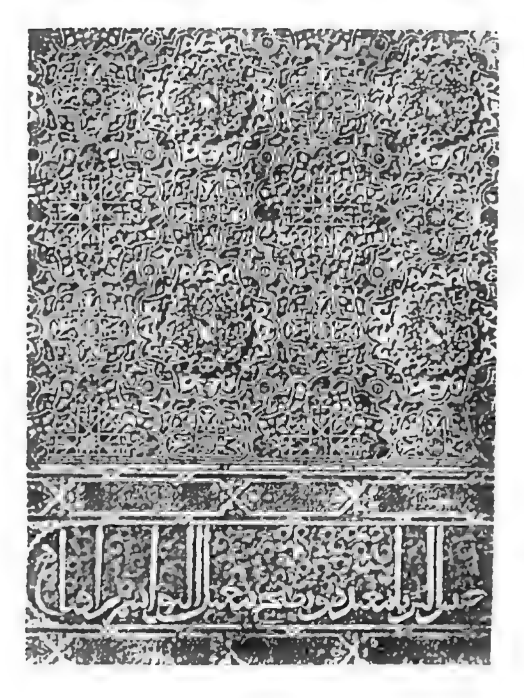
ولكن هل ابتكر المهندس العربى الذى صمم هذا القصر فكرة هذه الساحة ابتكارا أم أنه نقل تصميمها أو تأثر فيه بما كان معروفا فى إيران ومصر ؟

الواقع أننا لا نستطيع أن نقول إن هذا التصميم غير مسبوق ، فبعض الرسوم الإسلامية ، وبعض الطنافس الإيرانية ، تعطينا صورا تشبه هذه الساحة بما فيها من جواسق وحدائق ونافورات تمتد منها القنوات ، وقد كشف المرحوم على بهجت (بك) المدير السابق لمتحف الفن الإسلامى بالقاهرة فى خرائب الفسطاط عندنا عن منزل كبير - أو قل هو قصر - كانت به نافورتان إحداهما كبيرة والأخرى صغيرة ، وكانت تجرى بينهما قناة مبطنة بالرخام المزخرف ، فهل كان مهندس قصر الحمراء على علم بقصور مصر ، أو بطنافس إيران ، أو بالصور الإسلامية أم أنه اهتدى إلى تصميمه دون أن يستوحيه من أحد ؟ الله أعلم .

من ساحة الأسود إلى قاعة بنى سراج ، وهى مربعة الشكل ، بها حنايا فيها أعمدة جميلة ، ذات تيجان ملونة باللون الأزرق ، وقواعد مزينة بالقراميد الأوربية التى ترجع إلى عصر النهضة فى أوربا ، ذلك أن انفجار مخزن البارود الذى أشرنا إليه عند حديثنا على قاعة المقرنص قد امتد أثره إلى هذه القاعة أيضاً فتخربت وأعيد بناؤها ، وقد رأى الذين أشرفوا على تجديد هذه القاعة أن يستخدموا فى تزيين جدرانها بعض أبيات من الشعر المنقوش على جدران القاعة المقابلة لها التى سنتحدث عنها بعد قليل .

ويخترق جدران هذه القاعة ست عشرة نافذة ، ويتوسط أرضيتها نافورة من الرخام الأبيض الذى تتخلله عروق حمراء ، يظنها بعض الناس أنها دماء بنى سراج التى أريقت فى هذه القاعة .

ولكن من هم بنو سراج هؤلاء ؟ أما التاريخ فيحدثنا عنهم بحديث ، وأما الأسطورة ، فتنسج حولهم قصة شائقة ، وحديث التاريخ يقول إنهم كانوا فى الأصل من العرب الذين



١٣ — قاعة بني سراج

وفدوا على الأندلس ، واستقروا أول ما استقروا فى قرطبة ، ثم خرجوا منها عندما استولى الإسبان عليها نازحين إلى غرناطة، وفى غرناطة سما شأنهم ، وعلا نجمهم ، وأصبحوا من البارزين فيها ، الممسكين بأطراف سياستها .

وقد كان لهم شأن مع سلاطين غرناطة ، عاونوا بعضهم ، وحقدوا على بعضهم ، وكان السلطان على أبو الحسن الملقب بالغالب بالله ممن حقدوا عليه ، وساهموا فى الكيد له ، وانحاوزا إلى زوجته العربية الأميرة عائشة الحرة ضده ، ولم يغفر السلطان لهم هذا الموقف فدبر مكيدة لقتلهم وقضى عليهم .

هذا هو حديث التاريخ ، أما حديث الأسطورة فممتع حقا ، يلذ الإنسان سماعه لا سيما إذا كان الراوى له إسبانية حسناء ممن يقمن بوظيفة المرشدات للزوار الأجانب لهذا القصر ، فهى تحدثك عن غرام عميد أسرة بنى سراج بأميرة من أميرات البيت الحاكم التى كانت وثيقة الصلة بالسلطان أبى الحسن ، وتسهب المرشدة الإسبانية فى وصف هذا الغرام الذى تأججت نيرانه فى قلب العاشقين ، وتشير لك إلى مكان لقاء الحبيبين فى جنح الظلام، ثم تذكر لك كيف انكشف أمر هذا الحب ، وكيف ثار السلطان أبو الحسن ثورة جامحة على أولئك الذين طعنوه فى عرضه وهو أهم مايعتز به ، وكيف أنه أقسم وهو فى ثورته

ليقتلن رجال بنى سراج جميعاً ، جزاء وفاقا لانتهاك واحد منهم حرمة السلطان .

ثم تحكى لك تلك المرشدة الجميلة قصة المكيدة التى دبرها السلطان لهم ، إذ أقام فى قصره وليمة كبيرة دعاهم إليها ، وأوعز إلى رجاله أن يستقبلوا بنى سراج فى هذه القاعة التى نحن فيها الآن ، ورتب الأمر بحيث يقبل أفراد هذه الأسرة فرادى ، ويتلقاهم أعوان السلطان واحداً بعد واحد ، ويقتلونهم جميعاً بحيث لا يعرف اللاحق منهم مصير السابق عليه ، وبهذه الطريقة قتلهم جميعاً ، وسالت دماؤهم غزيرة على الرخام الأبيض فصبغته أو صبغت أجزاء منه لا تزال إلى اليوم تذكرنا بتلك المأساة .

وتنسى المرشدة أو تتناسى وهى تشير إلى تلك البقع الحمراء ، أن فى الرخام ما هو أبيض تتخلله عروق حمراء وبقع فى لون الدم الإنسانى ، وتمضى المرشدة الإسبانية فى إتمام الأسطورة فتقول : إنه لا تزال تسمع فى ساحة الأسود التى تطل عليها هذه القاعة أنات خافتة ، وأصوات قرقعة السلاح تنبعث فى جوف الليل ، بل هى تزيد على ما تقدم أن بعض حراس القصر الذين يقومون بعملهم ليلا قد شاهدوا فى بعض الليالى أشباحاً لفرسان العرب

يظهرون بملابسهم الزاهية ، وأسلحتهم اللامعة ، ويسيرون فى مشيتهم المتزنة فى ساحة الأسودجيئة وذهابا .

* * *

ترى أليس ثمة تشابه بين نكبة بنى سراج هذه وبين نكبة البرامكة على أيدى هارون الرشيد فى بغداد ؟ ؟ الواقع أن هناك بعض أوجه الشبه بين النكبتين ، وأن كانتهما من الموضوعات الطريفة فى التاريخ الإسلامى التى يفسرها علم التاريخ بتفسير وتفسرها الأسطورة بتفسير آخر .

والرأى الراجح أن السبب فى قتل البرامكة فى المشرق ،وقتل بنى سراج فى المغرب ، إنما هو إحساس الرشيد وإحساس أبى الحسن بالخطر الذى كان يتهدد ملكيهما من ازدياد نفوذ البرامكة وبنى سراج ، وقد يلتمس لهما العذر فيما أقدما عليه لأنهما مهما بلغا من القوة ففيهما ضعف الرجل المستبد الذى إذا شعر بضعفه ثار على الذين أجبروه على أن يحس بهذا الضعف ويشعر به ، أما دور المرأة فى كلا الحادثين فأغلب الظن أنه مفتعل ، وهو إن جاز أن يقع فى الأندلس لأن بنى سراج وبنى الأحمر كلاهما من الأسر العربية الصميمة التى هاجرت إلى الأندلس واستقرت فيه ، فإنه لا يجوز قط أن يقع فى المشرق ،

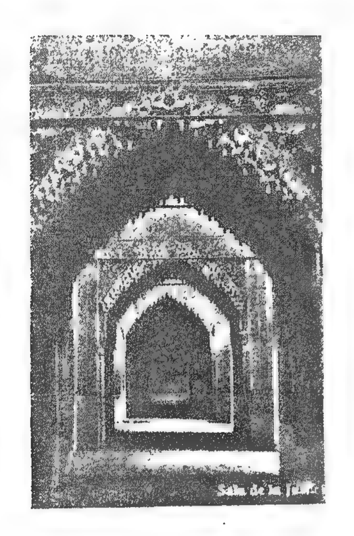
لحياة الرشيد نفسها دليل على اختلاق هذه الأسطورة ، والطبرى نفسه الذى يروى هذه الأسطورة يقول عن الرشيد: إنه كان يصلى كل يوم مائة ركعة نفلا ، وكان يغزو عاما ويحج عاما ، ولا يستسيغ العقل أن الرشيد يرضى لأخته العباسة بالزواج الصورى وهو من الناحية الشرعية مطعون فيه ، كما أنه من المستبعد أن يزوج الرشيد أخته إلى مولى من موالى الفرس مهما بلغت منزلته عنده ، ومن الصعب كذلك أن تقبل العباسة مثل هذا الزواج وهى ابنة خليفة ، وأخت خليفة ، وقريبة عهد ببداوة العروبة وطهارة الدين .



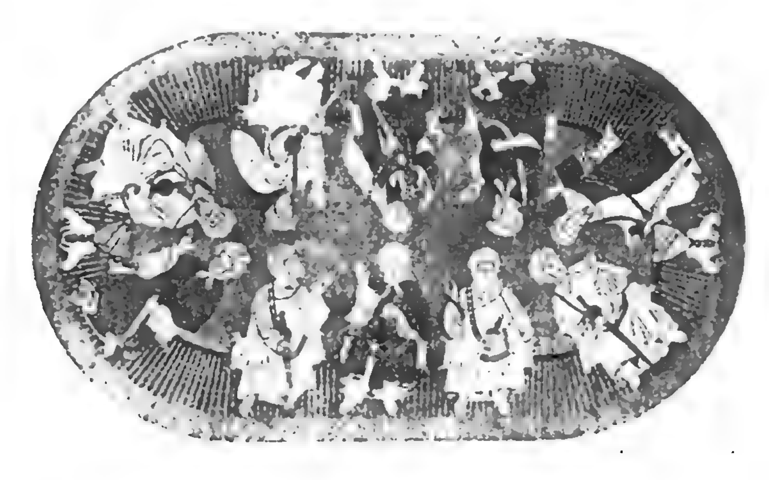
من قاعة بنى سراج إلى ساحة الأسود مرة أخرى ، ثم نتجه إلى الشرق لندخل قاعة تمتاز عن قاعات القصر الأخرى بأنها مستطيلة ، بل بأنها تخرج فى استطالتها عن المألوف فى هذا البناء ، وهى تسمى بأسماء شتى : فهى « قاعة الملوك » عند بعض الناس ، وهى « قاعة العدل » عند آخرين ، وهى « قاعة المحكمة » عند فريق ثالث ، وهى « قاعة الصور » عند فريق رابع . والمسئول عن هذه الأسماء المختلفة إنما هو ما نراه فى هذه القاعة من صور ، وما فسرت به هذه الصور .

وتنقسم هذه القاعة إلى سبعة أقسام بواسطة ستة عقود تجرى من الشرق إلى الغرب ، ويتجلى فيها مدى حذق الفنان العربى فى عمل المقرنص الذى نراه متدليا من بواطن هذه العقود .

وفى وسط سقفها نشاهد صوراً ملونة تمثل مناظر شتى اختلف علماء الآثار بصدد مَنْ رسمها اختلافا عظيما ، فنهم من قال إنها من رسم مصورين من الإسبان ، ومنهم من قال إنها من رسم مصورين من الفرنسيين ، ومنهم من قال إنها من رسم



١٤ — قاعة العدل



١٠ — منظر في سقف قاعة العدل

مصورين من الأندلس متأثرين بالتقاليد الفنية الإيطالية ، ومهما اختلفت هذه الآراء بصدد جنسية المصور ، فهى تكاد تجمع على أمر واحد هو أن هذه الصور قد رسمت فى القصر قبل خروج العرب منه ، يوم كان فى هذا القصر كرسى الملك فى مملكة غرناطة . والصورة الرئيسية تمثل مجلساً لعشرة رجال يُظن أنهم قضاة جلسوا فى ساحة العدالة ، ومن هنا سميت القاعة : « قاعة العدل أو قاعة المحكمة » . ويُظن أيضاً أن هؤلاء الرجال يمثلون السلاطين العشرة السابقين مباشرة على السلطان أبى عبد الله آخر سلاطين بنى الأحمر . على أننا لا نملك فى الواقع من الأدلة ما نستطيع أن نقطع به بشىء فى هذا الصدد ، كما أننا لا نعرف من أين نبدأ إذا أردنا التعرف على هؤلاء السلاطين سلطانا بعد سلطان .

* * *

ولكن أمراً واحداً يستوقفنا عند هذه الصور ، ويثير فى أذهاننا مشكلة طال الأخذ والرد فيها بين المشتغلين بالآثار ، هى مشكلة التصوير فى الفن العربى هل كان محرماً أو غير محرم ؟ .

الواقع أن هذا الفن لم يحرمه الإسلام بدليل أن القرآن لم يرد فيه نص على التحريم ، والمكروه منه هو ما استخدم فى العبادة .

ومن الحق علينا أن نبرئ الدين الإسلامى من هذه التهمة التى ألصقها به بعض المتزمتين من الفقهاء ، والله سبحانه وتعالى قد ترك لنا أمر التصوير لنرجع فيه إلى حكم العقل وسنن التطور والرقى ، وفى الحق أن هذا الدين الذى لم يتعرض لنظام الحكم وهو أشد خطراً فى حياة المسلمين من التصوير ، بل ترك ذلك لهم يسيرون فيه على النهج الذى يتلاءم وظروف حياتهم ، ويستمينون فيه بتجارب من سبقهم من الأمم — لأحمى من أن يحرم أمراً يتصل بسمو الحياة البشرية وتطورها ، ومن ذا الذى يستطيع أن ينكر على التصوير دوره الخطير فى حياتنا ؟



ونعود من هذه القاعة إلى ساحة الأسود مرة أخرى ، ثم ننحرف قليلا لندخل فى قاعة جديدة مواجهة لقاعة بنى سراج التى زرناها من قبل تسمى « قاعة الأختين ».

ولست أعرف السر فى هذه التسمية ، والذى يقوله لك المرشد ليس فيه ما يقنع ، فهو يجيبك عندما تسأله عن سر هذه التسمية بإشارة من يده إلى لوحين من الرخام مبسوطين على جانبى نافورة صغيرة ، ويحاول أن يثبت لك أنهما متشابهتان فى كل شىء : فى الشكل وفى اللون وفى الحجم فهما أختان توأمتان ، ومن أجلهما سميت القاعة بهذا الاسم ، وأهز رأسى علامة التسليم بهذا التفسير ، ولكننى فى الواقع أفكر وأفكر : تُرى هل كان يسكن هذه القاعة أختان من بنات سلاطين الحمراء أم كانت سكنا لأختين من بنات ملوك الإسبان الذين عاشوا فى القصر بعد خروج العرب منه ؟ أم . . . أم . . . ؟ لا أدرى والله أعلم بالحقيقة .

أما القاعة نفسها فهى من أجمل قاعات القصر ، الفسيفساء فيها أجمل منه فى أى قاعة أخرى ، وقراميدها تفوق فى تناسق

الوانها قراميد الغــرف الأخرى ، وزخارفها الجصية غاية فى الروعة ، ونحن إذا تتبعنا هذه الزخرفة بأبصارنا لنعرف من أين بدأت وإلى أين تنتهى خرجنا من هذا التتبع أشد إيمانا بعبقرية الفنان العربى ، وقدرته على خلق الزخارف المختلفة وتوليد بعضها من بعض . وفى الحق أن الإنسان لتتملكه الحيرة وهو يشاهد هذه القاعة هل موطن جمالها فى زخارفها الجصية ، أم فى توافق الألوان المختلفة التى تعكسها القراميد ، أم فى ذلك الباب المصنوع من الخشب المطعم بالعاج ، أم فى النوافذ التى تغطيها مصبعات دقيقة من الخشب المخروط المعروف بالمشربيات ، أم هو فى هذه جميعاً ؟

ولعل إحساسنا بالجمال يزداد ويطغى عندما يتقدم الإنسان من جدران هذه الغرفة ، ويطالع عليها أبيات تلك القصيدة العصماء التى قالها شاعر البلاط على عهد السلطان الغنى بالله المعروف بابن زمرك والتى تفيض عذوبة ، وتنفث مع باقى مظاهر الجمال الفنى فى هذه القاعة سحراً حلالاً ، انظر إليه يقول :

أنا الروض قد أصبحت بالحسن حاليا

تأمل جمالى تستفد شرح حاليا

أباهى من المولى الإمام محمد
بأكرم من يأتى ومن كان ماضيا

ولله مبناه الجميل فإنه
يفوق على حكم السمو والبانيا

فكم فيه للأبصار من متنزه
تجدّ به نفس الحليم الأمانيا

تبيت له خمس الثريا معيدة
ويصبح مثل النواسم راقيا

به القبة الغبراء قلّ نظيرها
ترى الحسن فيها مستكنا وباديا

تمد لها الجوزاء كف مصافح
ويدنو لها بدر السماء مناجيا

وتهوى النجوم الزهر لو ثبتت بها
ولم تك فى أفق السماء جواريا

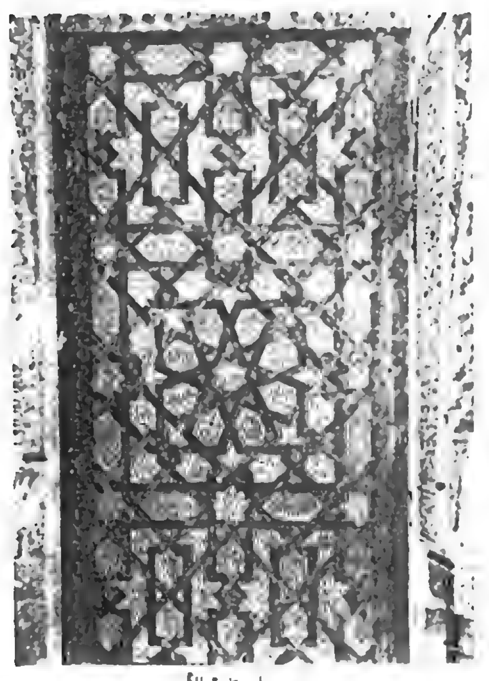
ولو مثلت فى ساحتيها وسابقت
إلى خدمة ترضيه فيها الجواريا

ولا عجب أن فاتت الشهب فى العلى
وأن جاوزت فيها المدا المتناهيا
فبين يدى مولاى قامت لخدمة
ومن خدم الأعلى استفاد العاليا
بها البهو قد حاز البهاء وقد غدا
به القصر آفاق السماء مباهيا
وكم حلة جللته بحليها
من الوشى تنسى السابرى اليمانيا
وكم من قسى فى ذراه ترفعت
على عمد بالنور بانت حواليا
فتحسبها الأفلاك دارت قسيها
تظل عمود الصبح إذ لاح باديا
سوارى قد جاءت بكل غريبة
فطارت بها الأمثال تحدى سواريا
به المرمر المجلو قد شف نوره
فيجلو من الظلماء ما كان داجياً
إذا ما أضاءت بالشعاع تخالها
على عظم الأجرام منها لآليا

ولم نر قصراً بنه أعلى مظاهرا
وأوضح آفاقا وأفسح ناديا
ولم نر روضاً منه أنعم نضرة
وأعطر أرجاء وأجلى مجانيا
مصارفة النقدين فيه بمثلها
أجاز بها قاضى الجمال التقاضيا
فإن ملأت كف النسيم مع الضحى
دنانير نور ظل عنها مكافيا
فيملؤ حجر الروض حول غصونها
دنانير شمس تترك الروض حاليا
تمد له الجوزاء كف مصافح
ويدنو لها بدر السماء مصافيا
وبينى وبين الفتح أشرف نسبة
فأحسن منها نسبة هو ما هيا

* * *

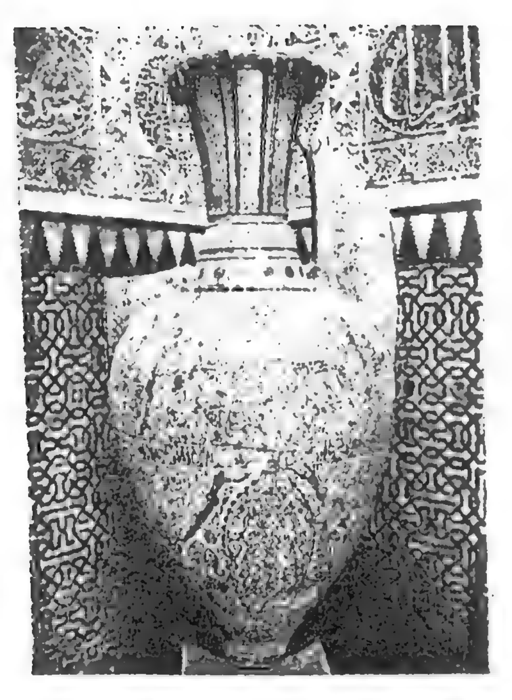
وقد كان فى أحد أركان هذه القاعة منذ عهد ليس بالبعيد جرة من الخزف تراها اليوم معروضة فى متحف الحمراء ، وهى تدل فى صناعتها وفى زخارفها على أن الأندلس قد وصلت فى هذه الصناعة إلى درجة سامية من الإتقان ومن الذوق



١٦ — باب قاعة الأختين

المصقى ، واشتهرت بهذه الصناعة عن جدارة شهرة رددها المؤرخون من العرب فى العصور الوسطى ، ومن الأوربيين فى العصور الحديثة ، ويكفى أن نشير إلى ما قاله الإدريسى من أنه كان يصنع بالأندلس «الغضار المذهب» ويجهز إلى كل الجهات ، وإلى ما قاله ابن بطوطة من أنه كان يصنع بها « الفخار المذهب» ويجلب إلى أقاصى البلاد .





١٧ — جرة الحمراء

قاعة الأختين تنفذ إلى قاعة تقع إلى شمالها ، تعرف « بقاعة ستائر الخشب المخروطة » أو « قاعة المشربية» . وهذه الكلمة الأخيرة — على حد قول المرحوم على بهجت (بك) مدير متحف الفن الإسلامى — محرفة عن مشرفة ، وهى مشتقة من الفعل اشرأب أى مد عنقه ليتمكن من النظر ، وعلى هذا الأساس فإن معناها الجزء الذى يشرف منه الإنسان على الطريق .

وقد سميت هذه القاعة كذلك لأن نافذتيها المطلتين على حديقة القصر ، قد سدت كل منهما بستارة شبكية من الخشب المخروط ، المكونة من قطع صغيرة قد جمعت معاً على هيئة خاصة ونشأ عن تجميعها زخارف جميلة .

* * *

والراجح أن طريقة عمل « المشربيات » قد ابتكرها النجار المصرى فى العصور الوسطى تحت ضغط الظروف التى فرضتها عليه طبيعة البلاد ، وجوها ، ونظامها الاجتماعى . ففقر البلاد فى الأنواع الجيدة من الخشب ، واعتمادها فى معظم

مصنوعاتها الخشبية على المستورد من الخارج ، رفع من قيمة الخشب ، وحمل النجار على التدقيق فى الاستفادة منه ، وعدم التفريط فى أى قطعة منه مهما صغرت ، وجو البلاد القارى من حرارة فى الصيف وبرودة فى الشتاء ، وتأثر الخشب بهذا الجو ، جعلت النجار يهتدى إلى طريقة الخرط (كما اهتدى إلى طريقة التجميع والتعشيق) ليسمح للخشب بالتمدد والتقلص دون أن يؤثر ذلك فى الشىء المصنوع . والنظام الاجتماعى الذى كان يقضى بحجاب السيدات جعل النجار يسد منافذ المنازل والقصور بستائر شبكية من الخشب المخروط تساعد على دخول الضوء اللطيف والنسيم العليل إلى الداخل وتمكن فى الوقت نفسه السيدات من مشاهدة ما يجرى فى الخارج دون أن يراهن غريب ، ويوفر لمن فى الداخل جواً مناسباً ، وظلا وارفا فى بلد اشتهر بشمسه الساطعة ومناخه الحار .

وقد استطاع النجارون أن يحدثوا فى هذه « المشربيات » زخارف مختلفة من كلمات عربية ، أو أشكال نباتية ، أو صور أوان ، وذلك بواسطة تجميع القطع المخروطة الصغيرة بعضها إلى بعض بحيث تتكون من ذلك هذه الأشكال .

وقد انتقلت هذه الطريقة من مصر إلى بلاد المغرب ،

ومن بلاد المغرب إلى الأندلس حيث رأيناها قبل هذه القاعة في بعض ساحات القصر وقاعاته .

ومن السهل أن يدرك الإنسان أن يد التجديد قد لعبت بزخارف هذه القاعة ، ونشاهد في منتصف ضلعيها الطويلين عقدين عظيمين : عقد المدخل الذى مررنا تحته والذى يطل على قاعة الأختين ، والعقد الآخر مواجه له في الجدار المقابل ومنه تنفذ إلى « عين دار عائشة » كما يسميها الإسبان "L'ain dar Aicha" .

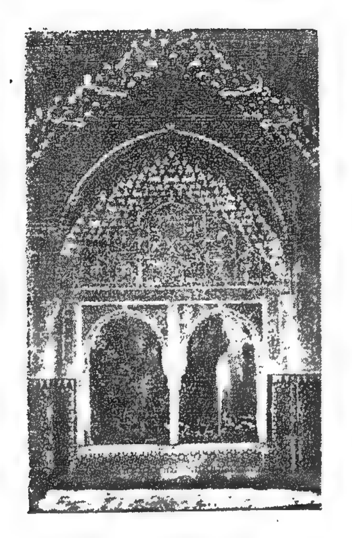


[illegible] عائشة مجموعة من الغرف الصغيرة بعضها فوق بعض [illegible] تحيط بقاعة صغيرة مربعة ، ومن نافذة هذه القاعة أو بعبارة أخرى من عين دار عائشة يستطيع سكان هذه الدار أو على الأدق ، هذه الغرف ، أن يستمتعوا بمنظر طبيعي خلاّب فيه نهر جار ، وجبل عال ، وواد منحـدر إلى سهل منبسط ، وبساط من سندس أخضر تتخلله أشجار باسقة ، وأزهار يانعة مختلفة الألوان قد نسقتها يد الإنسان . وقد تغيرت معالم هذا الجمال الطبيعي الساحر بعد أن خرج العرب من البلاد ودخل على القصر بعض التعديلات في هذا الجزء .

* * *

ولـكن من هي عائشة التي خلعت اسمها على هذه الدار الجميلة ؟ لو استعرضنا صفحات التاريخ الأندلسي ما وجدنا فيها إلا قصة السلطانة عائشة الحرة زوجة السلطان على أبي الحسن الملقب بالغالب بالله ووالده آخر سلاطين بني الأحمر المعروف بأبي عبد الله أو بيديل Bobdil كما تسميه المراجع الأجنبية .

وأغلب الظن أن هذه الدار كانت السكن الخاص لأميرات



١٨ — عين دار عائشة

بنى الأحمر ومن بينهم السلطانة عائشة التى سجلت لنفسها فى تاريخ العصر الأخير للأندلس صفحات لا تنسى، ومن هنا عرفت باسمها لطول عهدها بهذه الدار، وخروج الملك من أيدى بنى الأحمر فى أيامها.

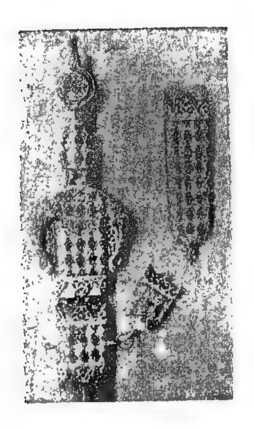
والسلطانة عائشة الحرة هى ابنة السلطان أبى عبد الله الأيسر أحد سلاطين بنى الأحمر، تزوجت بالسلطان الغالب بالله، ورزقت منه بولدين أحدهما هو أبو عبد الله سالف الذكر. وقد كان زوجها فى أول أمره شجاعاً، مقداماً، سجل لنفسه النصر على الإسبان فى مواقع عدة، ثم انعكست آيته، فانصرف فى أواخر أيامه إلى الدعة، وأسلم زمام أمره إلى شابة إسبانية وقعت أسيرة له، وحملت إلى القصر حيث اعتنقت الإسلام وسميت « ثريا أو كوكب الصباح » بعد أن كانت تسمى « إيزابلا ». وتزوج منها السلطان، ورزق منها بغلام كان فى نظرها أحق بالخلافة من سواه. ونسى السلطان زوجته الأولى أو تناساها، وهجرها ليجدد شبابه الذى ولى بشباب هذه الزوجة الأجنبية الذى لا يزال غضاً، وينعم بجمالها، ويأنس إلى حلو حديثها. وكان طبيعياً أن تحاول الزوجة العربية الانتقام، وكان طبيعياً كذلك أن ينقسم الشعب إلى حزبين : حزب مع السلطان وحزب

مع السلطانة يعطف عليها ويألم لآلامها ، وهكذا بدأت الحرب بين السلطانة عائشة الحــرة — وقد سميت كذلك تمييزاً لها عن الزوجة الأجنبية التى كانت أمَة — وبين ثريا ، وكان النصر فى جانب ثريا لقربها من السلطان الذى أصدر أمراً باعتقال عائشة وولديها فحملوا إلى برج قمارش حيث سجنوا فى الطابق العلوى ، ولم تكتف ثريا بهــذا النصر بل أمعنت فى الكيد للسلطانة وولديها ، فحرضت زوجها على قتل ولده أبى عبد الله ، وعرفت عائشة بالخــبر فأقدمت على الهرب الذى تم بمعاونة أصدقائها وهبطت من البرج بواسطة ما لديها من أقمشة ربطتها بعضها إلى بعض وتدلت بها إلى الأرض حيث حملتها الجياد مع ولديها إلى مكان أمين،والتف خلق كثيرون حول الأمير الهارب أبى عبدالله وحاصروا السلطان فى قصره ولكنه تمكن من الهرب وتربع الابن على العرش، ثم خرج لحرب الإسبان ، ووقع فى الأسر وخلا عرش غرناطة ، واستدعى له السلطان السابق ولكنه تنازل عنه إلى أخيه ثم مات . وأفرج الإسبان عن الأمير الأسير أبى عبد الله ، وساعدوه فى استرداد عرشه ، وقامت الحرب بينه وبين عمه ، وانهزم العم ، واسترد أبو عبد الله العرش ولكنه ما كاد يهنأ به حتى جاء الإسبان يطلبون ثمن معاونتهم له ، وكان

الثمن غاليا لا يطيقه ، إذ كان يتلخص فى تسليم غرناطة، لذلك خرج يقاومهم بسيفه ،ودوت فى أرجاء غرناطة صيحة الحرب،وحاصر الإسبان البلاد سبعة شهور متوالية انتهت بالتسليم، وجلا بنو الأحمر عن القصر وأخلوا قاعاته وساحاته، وخرج أبو عبد الله يجرجر أذيال الفشل ، وألقى على ملكه، وقصره آخر نظرة، ولم يستطع أن يملك دموعه فانطلقت تجرى على خديه ، والتفتت إليه أمه السلطانة عائشة ، وكانت تسير وراءه مع زوجته وأخته وطفله ، وقالت له فى مرارة وحسرة: « أجل فلتبك مثل النساء مُلكا لم تستطع أن تدافع عنه مثل الرجال » . وهكذا انتهت قصة عائشة الحرة وانتهت معها قصة بنى الأحمر .

* * *

وإنى لأتخيل الآن وأنا فى هذه القاعة تلك السلطانة العظيمة يوم كان زوجها قوياً ، مهابا ، يخرج لحرب الإسبان ثم يعود مرفوع الرأس متوج الهامة بأكاليل النصر ، أتخيلها وقد وقفت مثلى أمام هذه النافذة تلقى ببصرها على المروج الخضراء ، وتشنف أذنها بخرير المياه وتغريد الطيور ، ثم يرتد طرفها إلى داخل القاعة فتملأ أقطار عينيها بجمال الزخرف المرقوم فوق الجص ، ثم تمد بصرها إلى مايجرى على الجدران، وحول العقود من كتابات، بعضها بالخط الكوفى الذى تبدو فيه المهابة والجلال،



١٩ — سيف السلطان أبي عبد الله آخر سلاطين بني الأحمر

وبعضها بالخط النسخى الذى تتجلى فى مداته وأقواسه الليونة والرشاقة، وبعضها بالخط المغربى الذى يجمع بين محاسن الكوفى والنسخى . وتحاول أن تردد فى همس أبيات الشعر الجميلة المنبثة هنا وهناك فتقرأ حول عقد المدخل :

كل صنع أهدى إلىّ جماله
وحبانى بهاءه وكماله

. . . .

فإذا مبصرى تامل حسنى
أكذب الحسن بالعيان خياله

. . . .

وتقرأ فى الجانب الأيسر :

لست وحدى قد أطلع الروض منى
عجباً لم تر العيون مثاله

ذاك صرح الزجاج من قد رآه
ظنه لجة تروح وهاله

كل هذا صنع الإمام ابن نصر
حرس الله للملوك جلاله

آله فى القديم حازوا المعالى
وهمُ آووا النبى وآله

وتترنم بتلك القصيدة الرائعة :

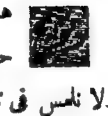
وجاء بهـا برد الهواء نسيمها
فصحت هواء والنسيم قد اعتـلا
وقد حزت من كل المحاسن غاية
تقبس عنهـا الشهب فى الأفق الأعلى
وإنى بهذا الروض عين قريرة
وإنسان تلك العين حقاً هو المولى
محمد المحمود بالباس والنـدى
وذو الصيت ما أعلى وذو الهدى ما أملى
تجلى بأفق الملك بدر هداية
فآثاره تملى وأنواره تجـلا
وما هو إلا الشمس حلت بمنزل
أفىء عليه كل خير به ظـلا
يطالع منى حضرة الملك كلمـا
تجلى بكرسى الخلافة ما استجلا
ويرسل طرف الطرف فى ملعب الصبا
فيرجع مرتاح المعاطف قد كلا

منازل فيها للعيون منارة
تفيد منها الطرف أو تعقل العقلا

وأبدى بها أفق الزجاج عجائبا
تخط على صفح الجمال وتستملا

تعدد فيها اللون والنور واحد
فإن شئت قل ضد ، وإن شئت قل مثلا





هذا الجمال الرائع ، ونعود أدراجنا لـكى تنفذ إلى حديقة دار عائشة التى تسمى أيضاً بحديقة البرتقال .

ولا نلمس فى تنسيق هذه الحديقة الروح العربية الأندلسية ، وليس فيها من هذه الروح إلا تلك النافورة التى تتوسطها والتى أقيمت فى هذا المـكان بعد خروج العرب من القصر ، ولا ننسى ما ذكرناه من قبل من أن هذا الجزء من القصر قد تجدد وتعدل بل أنشئ إنشاء فى العصر اللاحق للعصر العربى .

وننتقل من الحديقة إلى برج أبى الحجاج وقد دخل عليه كثير من التعديل لا سيما فى داخله، أما خارجه فقد بقى له مظهره القديم . وله باب فخم قد نقش على عتبته هذا النص :

« .. الباسل أبى عبد الله الغنى بالله ، ابن مولانا أمير المسلمين السلطان الجليل ، الملك الأصيل، ذو المحامد والمناقب ، والعطايا الجزيلة والمواهب ، الحامى الديار ، القامع أعداء الله الكفار ، أبى الحجاج ابن مولانا السلطان المعظم » .

ومن أجل هذا النص ينسب البرج إلى أبى الحجاج .

وداخل البرج قاعة تذكرنا « بقاعة المشور » التى أسلفنا الإشارة إليها ، فهى منقسمة إلى قسمين أحدهما مستطيل والآخر مربع ، وهذا الأخير يعرف « بمخدع الملكة » لأنه أعد بالفعل للملكة إيزابلا .

ويتصل بهذه القاعة مسكن الإمبراطور فرديناند ، ولن نمكث هنا طويلا لأن المكان قد تغير تغيراً كلياً لكى يلائم الذوق الغربى ، وقد سكن الكاتب الأمريكى جورج افرنج فى هذا المكان عندما كتب كتابه عن الحمراء .

وفى الغرفة المستطيلة تقرأ الآية الكريمة : « إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ماتقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيما وينصرك الله نصراً عزيزاً ، هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم » .



لم يبق أمامنا فى القصر إلا الحمام، وهو يعتبر من أقدم أجزاء القصر التى احتفظت بشكلها وتخطيطها الذى كانت عليه يوم أنشىء فى منتصف القرن الرابع عشر ، وقد ظل محتفظا بالمراجل النحاسية التى كان يسخن فيها الماء حتى القرن التاسع عشر .

وتخطيط هذا الحمام يذكرنا بتخطيط حمامات القاهرة المعاصرة له أى التى ترجع إلى عصر المماليك ، فهو لا يشذ فى تخطيطه عن الحمامات الإسلامية كما عرفت فى الشرق وفى الغرب ، بل ولا يكاد يشذ عن الحمامات الرومانية القديمة التى منها استوحى العرب تصميم حماماتهم .

ويتكون الحمام من أجزاء ثلاثة : من الاستراحة ، والغرفة الدافئة ، والغرفة الساخنة .

أما الاستراحة أو قاعة السريرين كما يسميها الإسبان اليوم فقد استمدت هذا الاسم من سريرين قد شيدا فى جانبى القاعة من الطوب كما تبنى المصاطب عندنا فى الريف ثم كسيا بالقراميد

المختلفة الألوان ، وتوج كل من السريرين بعقدين صغيرين متجاورين يتـكئان على أعمدة ثلاثة غاية فى الدقة والرقة واحد منها فى الوسط والآخران فى الجانبين ملتصقان بالجدارين . وقد كان هذان السريران مفروشين بالوسائد الوثيرة التى تتناسب مع جمال القصر وثراء سكانه . وكانت الستائر الغالية تتدلى عليهما من وراء تلك العقود التى تتوجها . وبين هذين السريرين نشاهد نافورة صغيرة ينبعث ماؤها هادئاً من صنبور يتوسطها فيضفى على المـكان روعة وبهاء .

ولقد جددت هذه الاستراحة أكثر من مرة ويبدو هذا التجديد واضحا فى زخارفها وفى قراميدها .

وتؤدى هذه الاستراحة فى الحمام وظيفة هامة إذ فيها تخلع الملابس ، وفيها يستريح الإنسان بعد الاستحمام ، وفيها يقدم الشراب الدافىء المنعش والغذاء الخفيف .

أما الحجرة الدافئة فقد كان فيها حوض كبير تتصل به أنابيب تجرى تحت الأرض، وفى داخل الجدران ، تحمل الهواء الساخن ، والماء الفاتر من بيت النار ، ويعبق المـكان ببخار يشيع فيه الدفء .

والحجرة الساخنة بها هى الأخرى حوض كبير تعلوه كوة فى الجدار بها فتحتان كان بهما فيما مضى صنبوران كل

منهما على هيئة الأسد ، واحد يمج الماء البارد والآخر يمج الماء الساخن . ولكن كيف عرفنا شكل هذين الصنبورين وقد اختفيا من الوجود ؟ الفضل فى ذلك يرجع إلى أبيات الشعر التى نقرأها حول هذه الكوة :

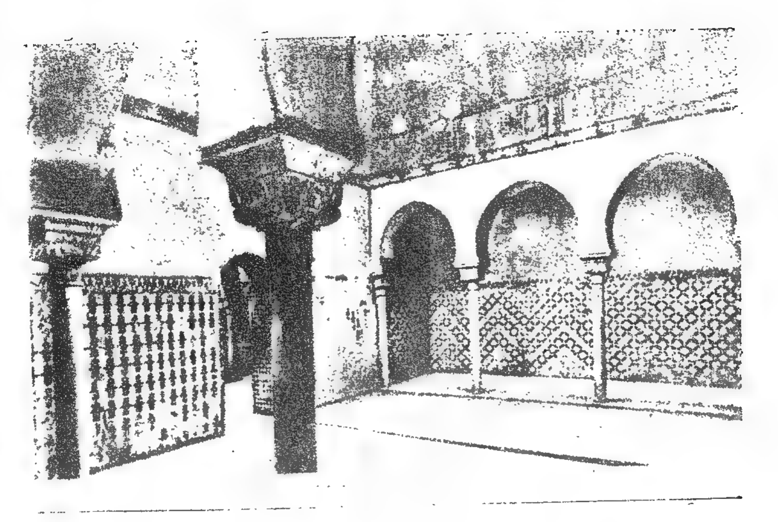
أعجب شىء حادث أو قديم
مرابض الأسد ببيت النعيم
من أسد قابله مثله
قاما لدى المولى مقام الخديم
تقاسما وصفى علاه فمن
باس له جام وجود عميم
يفيض ذا عذبا بروداً وذا
ضد له فهو يفيض الحميم
هذا وكم من عجب عاجب
يسره سعد المقام الكريم
من كأبى الحجاج سلطاننا
لا زال فى نصر وفتح عظيم

* * *

والواقع أن البساطة تتجلى فى هذا الحمام من حيث الزخرف

إذا ما قورن بباقى أجزاء القصر ، فالجزء الأسفل فقط من الجدران قد كسى بالقراميد ، أما عقوده فمن النوع المعروف بالعقود الحدية الشكل أى التى على هيئة حدوة الفرس، وأما الضوء فكان ينفذ إلى داخله من فتحات نجمية الشكل فى السقف مغطاة بزجاج مختلف الألوان .





٢٠ — حمام قصر الحمراء

خاتمة

فهذه جولة بين أبهاء قصر الحمراء وقاعاته ، ولمسة لتاريخه ، ونظرة إلى زخارفه، ووقفة عند النصوص المثبتة على جدرانه وعند الأشعار التى تزين نافوراته وتدور حول عقوده ، ولمحة من أساطيره التى لا تزال حتى اليوم تروى لزواره..

جولة كشفت لنا عن براعة المهندس العربى الذى صمم هذا القصر ، وسطر لنفسه فى سجل الخلود صفحة يتجلى فيها جمال الفن العربى ، وعظمة العرب فى صناعة البناء وصناعة الخزف .

ولمسة لتاريخه فيها فخر نعتز به ، فقد كنا سادة العالم ، يسعى إلينا الناس ليتلقوا على أيدى أجدادنا دروس الحضارة، وليستفيدوا بما وصلوا إليه من سمو فى الذوق، وتفقه فى العلم، وقدرة على تطبيق نظرياته . وفيها عبرة لنا وعظة نأخذها مما وصلنا إليه يوم دب الضعف فى أوصالنا ، وأسلمنا الزمام لغيرنا . وفيها حافز لنا لأن نعيد مجد الآباء .

ونظرة إلى زخارفه تجلو لنا عبقرية الفنان العربى فى ابتداع تلك الطرز المختلفة من الزخارف التى استمد عناصرها

الأولية من الفنون التي سبقته إلى الوجود ، ولكنه استطاع أن يذيب هذه العناصر الزخرفية في بوتقته ، وأن يخرجها من بين يديه في ثوب جديد ، ومظهر مبتكر ، لا يخفى عليك أصله ولكنك لا تستطيع أن تنكر عليه شخصيته القوية الواضحة .

ووقفة عند النصوص المكتوبة تكشف لنا عن ذوق مصفى وحس رقيق ، فالأشعار تنم عن عبقرية الشاعر الأندلسي وسعة خياله، ورقة حاشيته، ومقدرته على تصيد المعاني المبتكرة، وعلى صياغتها في أسلوب ساحر خلاب ، فعلى سبيل المثال نجد في القصيدة الرائعة المنقوشة على جدران قاعة الأختين أن الشاعر يتخيل بدر السماء وهو يناجي القصر، ونجوم الصباح وهي تتمنى أن تنزل من سمائها لتعيش فيه لأنه عندها أجمل من السماء ، ثم هي تود لو قدر لها أن تشرق في أرجائه لا في صفحة السماء ، ثم هي بعد ذلك تحسد هذا الشاعر لأنه يقيم في هذا القصر وهي لا تقيم فيه . أما النصوص الأخرى سواء منها ما كان متخذا من القرآن الكريم مثل « وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم » أو « الله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين » أو « نصر من الله وفتح قريب ». أو ما كان متخذاً من الحكم الشائعة مثل « الله عيذة لكل شدة » ، «السعد والتوفيق نعم الرفيق» . أو ما كان متخذاً

من الـكلمات الدعائية مثل « يمن — البركة — الغبطة » . أو ذلك الشعار الذى اتخذه بنو الأحمر لأنفسهم والذى نراه منقوشا على جدران معظم ساحات القصر وقاعاته وهو « ولا غالب إلا الله » — هذه النصوص تـكشف عن تناسب موفق بين معناها وبين الموضع الذى اختير لها .

ولمحة من أساطيره فيها متعة ترفه عن الذهن وتشيع النشوة فى النفس .



المكتبة الثقافية

تحقق اشتراكية الثقافة

صـــدر منها

١	— الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونان والعبريين	للأستاذ عباس محمود العقاد
٢	— الاشتراكية والشيوعية	للأستاذ على أدهم
٣	— الظاهر بيبرس فى القصص الشعبى	للدكتور عبد الحميد يونس
٤	— قصة التطور	للدكتور أنور عبد العليم
٥	— طب وسحر	للدكتور بول غليونجى
٦	— فجر القصة	للأستاذ يحيى حقى
٧	— الشرق الفنان	للدكتور زكى نجيب محمود
٨	— رمضان	للأستاذ حسن عبد الوهاب
٩	— أعلام الصحابة	للأستاذ محمد خالد
١٠	— الشرق والإسلام	للاستاذ عبد الرحمن صدقى
١١	— المريخ	للدكتور جمال الدين الفندى والدكتور محمود خيرى
١٢	— فن الشعر	للدكتور محمد مندور
١٣	— الاقتصاد السياسى	للاستاذ أحمد محمد عبد الخالق
١٤	— الصحافة المصرية	للدكتور عبد اللطيف حمزة
١٥	— التخطيط القومى	للدكتور ابراهيم حلمى عبد الرحمن
١٦	— امجادنا فلسفة خلقية	للدكتور ثروت عكاشة
١٧	— اشتراكية بلدنا	للأستاذ عبد المنعم الصاوى

١٨ — طريق الغد ... ... للاستاذ حسن عباس زكى

١٩ — التشريع الإسلامى وأثره فى الفقه الغربى — للدكتور محمد يوسف موسى

٢٠ — العبقرية فى الفن ... ... الدكتور مصطفى سويف

٢١ — قصة الأرض فى إقليم مصر ... للأستاذ محمد صبيح

٢٢ — قصة الذرة ... ... الدكتور إسماعيل بسيونى هزاع

٢٣ — صلاح الدين الأيوبى بين شعراء عصره وكتابه — للدكتور أحمد أحمد بدوى

٢٤ — الحب الإلهى فى التصوف الإسلامى للدكتور محمد مصطفى حلمى

٢٥ — تاريخ الفلك عند العرب ... ... الدكتور إمام إبراهيم أحمد

٢٦ — صراع البترول فى العالم العربى ... الدكتور أحمد سويلم العمرى

٢٧ — القومية العربية ... ... الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى

٢٨ — القانون والحياة ... ... للدكتور عبد الفتاح عبد الباقى

٢٩ — قضية كينيا ... ... الدكتور عبد العزيز كامل

٣٠ — الثورة العرابية ... ... الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى

٣١ — فنون التصوير المعاصر ... للأستاذ محمد صدقى الجباخنجى

٣٢ — الرسول فى بيته ... ... للاستاذ عبد الوهاب حمودة

٣٣ — أعلام الصحابة (المجاهدون) ... للأستاذ محمد خالد

٣٤ — الفنون الشعبية ... ... للأستاذ رشدى صالح

٣٥ — إخناتون ... ... الدكتور عبد المنعم أبو بكر

٣٦ — الذرة فى خدمة الزراعة ... ... الدكتور محمود يوسف الشواربى

٣٧ — الفضاء الكونى ... ... الدكتور جمال الدين الفندى

٣٨ — طاغور شاعر الحب والسلام ... الدكتور شكرى محمد عياد

٣٩ — قضية الجلاء عن مصر ... ... الدكتور عبد العزيز رفاعى

٤٠ — الخضراوات وقيمتها الغذائية والطبية الدكتور عز الدين فراج

٨٣ — حياد فلسفى ... ... للدكتور يحيى هويدى
٨٤ — سلوك الحيوان ... ... للدكتور أحمد حماد الحسينى
٨٥ — أيام فى الإسلام ... ... للأستاذ أحمد الشرباصى
٨٦ — تعمير الصحارى ... ... للدكتور عز الدين فراج
٨٧ — سكان الكواكب ... للدكتور إمام إبراهيم أحمد
٨٨ — العرب والتتار ... ... للدكتور إبراهيم أحمد العدوى
٨٩ — قصة المعادن الثمينة ... للدكتور أنور عبد الواحد
٩٠ — أضواء على المجتمع العربى للدكتور صلاح الدين عبد الوهاب
٩١ — قصر الحمراء ... ... للدكتور محمد عبد العزيز مرزوق

مطابع دار القلم بالقاهرة

المكتبة الثقافية

- أول مجموعة من نوعها تحقق اشتراكية الثقافة .
- تيسر لكل قارىء أن يقيم فى بيته مكتبة جامعة تحوى جميع ألوان المعرفة بأقلام أساتذة متخصصين وبقرشين لكل كتاب .
- تصدر مرتين كل شهر . فى أوله وفى منتصفه .

الكتاب القادم

الصراع الأدبى

بين العرب والعجم

الدكتور محمد نبيه حجاب

أول سبتمبر ١٩٦٣

مطابع دار ا...

الثمن ٢